

بدعة الكلام النفسي

عرض ونقض

الدكتور محمد بن عبدالرحمن الخميّس

كلية أصول الدين

جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية

المقدمة :

إنَّ الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره ، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا
وسيئات أعمالنا، من يهده الله فلا مضل له ، ومن يضلل فلا هادي له ،
وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له ، وأشهد أن محمداً عبده
ورسوله .

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تَقَاتِهِ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُمْ مُسْلِمُونَ ﴾

[آل عمران : ١٠٢] .

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُمْ مِنْ نَفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ
مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ
رَقِيبًا ﴾ [النساء : ١] .

﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلًا سَدِيداً ﴿٧٠﴾ يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ
لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَنْ يُطِيعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزاً عَظِيماً ﴿٧١﴾ ﴾ [الأحزاب : ٧١] .

أما بعد : فإن أصدق الحديث كتاب الله ، وخير الهدي هدي محمد ،
وشر الأمور محدثاتها، وكل محدثة بدعة، وكل بدعة ضلالة، وكل ضلالة
في النار^(١) .

وبعد :

فهذا البحث الموسوم بـ (بدعة الكلام النفسي عرض ونقض) قد أردت من
ورائه بيان نشأة هذه البدعة العقيدية الخطيرة ، وبيان مدى مخالفتها لعقيدة
السلف الصالح ، حيث إنه قد ظهر من يزعم أن القول بالكلام النفسي هو
عقيدة أهل السنة والجماعة ، فأردت أن أبين الحق ، وأن أعرض هذه البدعة ،
ومقصودها ، وتطورها لكي يكون طالب العلم في دينه وعقيدته على بصيرة

من أمره، ولبيان ما دخل على عقائد المسلمين من شوائب أهل الكلام والبدع، وقد جعلت هذا البحث مشتملاً على تمهيد وثلاثة مباحث. أما التمهيد فهو عبارة عن عرض لعقيدة السلف الصالح في كلام الله تعالى. وأما المبحث الأول فهو بعنوان: عرض عقيدة أهل البدع في كلام الله. والمبحث الثاني بعنوان: نشأة بدعة الكلام النفسي، والمبحث الثالث بعنوان: نقض وإبطال بدعة الكلام النفسي. ثم الخاتمة في نهاية البحث والله أسأل أن يجعل عملي هذا صالحاً، ولوجهه خالصاً.

وصلى الله وسلم وبارك على نبينا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين.

تمهيد

عرض عقيدة السلف في كلام الله

إن عقيدة السلف الصالح هي العقيدة الصحيحة الصافية، والتي أتى بها النبي صلى الله عليه وسلم، ودلت عليها نصوص الكتاب والسنة، ولا يفلح من أتى الله تعالى يوم القيامة إلا بها، ومن أبواب هذه العقيدة باب كلام الله تعالى. فالسلف يعتقدون أن القرآن كلام الله تعالى غير مخلوق، منه بدأ وإليه يعود واستدلوا على ذلك بقوله: ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِنَ الْمُشْرِكِينَ اسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ ثُمَّ أَبْلِغْهُ مَأْمَنَهُ ذَلِكَ بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَا يَعْلَمُونَ﴾ [التوبة: ٦] وهو القرآن من غير خلاف.

وصح أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: "ألا رجل يحملني إلى قومه، فإن قريشاً قد منعوني أن أبلغ كلام ربي" (٢) وهو القرآن.

فهو كلام الله حقاً، بلفظه ومعناه، سمعه منه جبريل عليه السلام، ثم نزل به على النبي صلى الله عليه وسلم فقرأه على الناس، فمن زعم أنه كلام بشر فقد كفر، وقد قال تعالى: ﴿فَقَالَ إِنَّ هَذَا إِلَّا سِحْرٌ يُؤْثَرُ﴾ (٢٤) **إِنْ هَذَا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ** (٢٥) **سَأُصْلِيهِ سَقَرَ** (٢٦) [المدثر: ٢٤ - ٢٦] فدل على أنه ليس كلام البشر، بل هو كلام خالق البشر.

وقد تكلم السلف كثيراً حول هذا الباب، وأنا أوجز كلامهم بذكر خلاصته في عبارات محددة، استقرأها السلف من نصوص الكتاب والسنة.

فاعلم أيها القارئ أن العقيدة السلفية في كلام الله تعالى متضمنة لما يلي:

(١) أن الكلام قديم صفة ذاتية لله تعالى من حيث النوع (٣). وصفة فعلية له تعالى من حيث الأفراد (٤).

(٢) والكلام صفة قائمة به تعالى^(٥) . فلا تقوم بغيره عز وجل كما قال أهل البدع .

(٣) والله سبحانه وتعالى لم يزل متكلماً ولا يزال متكلماً^(٦) إذا شاء سبحانه .

(٤) والله تعالى يتكلم بمشيئته واختياره^(٧) .

(٥) وكلامه سبحانه وتعالى مسموع بالأذان^(٨) حقيقة من غير توهم .

(٦) والقرآن كلام الله تعالى ، تكلم الله تعالى به^(٩) على الحقيقة .

(٧) والقرآن كلام الله تعالى بحروفه ومعانيه^(١٠) .

(٨) وكلامه سبحانه وتعالى بحرف وصوت مسموع^(١١) .

(٩) وكما أن الله تعالى ليس كمثله شيء ، كذلك كلامه ليس ككلام خلقه ، وصوته تعالى ليس كأصوات خلقه^(١٢) .

(١٠) والقرآن كلام الله على الحقيقة ، وهو عين كلامه الحقيقي^(١٣) ، فالقرآن كلام الله بحروفه وسوره وآياته غير مخلوق^(١٤) ، فمن قال إنه مخلوق فهو كافر^(١٥) .

وإن هذا القرآن العربي هو بعينه كلام الله تعالى على الحقيقة^(١٦) منه بدا وإليه يعود . ومعنى منه بدا أي : تكلم به فهو كلامه هو ، ومعنى إليه يعود أي : لا يبقى منه شيء في المصاحف أو في الصدور في آخر الزمان^(١٧) .

ولكن صوت القارئ بكلام الله تعالى ، ومداد الكاتب لكلامه تعالى ، والورق الذي يكتب عليه الكاتب كلام الله تعالى ، والنقوش التي يخططها الكاتب بيده ، كل ذلك مخلوق ، ولكن الملفوظ والمكتوب كلام الله تعالى ، فالصوت صوت القارئ والكلام كلام الباري^(١٨) .

المبحث الأول

عرض عقائد أهل البدع في كلام الله تعالى

اختلف الناس في صفة كلام الله، فذهب أصناف المعطلة من الفلاسفة والجهمية والمعتزلة والصوفية الاتحادية والحلولية والكلاية والماتريدية والأشعرية وغيرهم مذاهب شتى في كلام الله تعالى!.

وأذكر فيما يلي أهم هذه المذاهب مع الرد عليها:

المذهب الأول: مذهب الصوفية الاتحادية والحلولية^(١٩) وهو أن كلام الله تعالى كل كلام في جميع الكون، شعراً ونثراً. وفي ذلك يقول ابن عربي:

وكل كلام في الوجود كلامه سواء علينا نثره أو نظامه

أقول: وهذا المذهب ظاهر البطلان مخالف تماماً لعقيدة السلف الصالح التي سبق ذكرها في التمهيد مخالف لأصول اللغة، فإن كلام الشخص هو ما تكلم به هو لا غيره، وكلام الله تعالى هو ما تكلم به عز وجل وهو القرآن، لا ما تكلم به جميع الناس، فقول ابن عربي المذكور ظاهر الفساد والبطلان، مناقض تماماً لدلالة العقل الصريح والنقل الصحيح عن النبي صلى الله عليه وسلم كما في الحديث "فإن قريشاً قد منعوني أن أبليغ كلام ربي"^(٢٠)، ولما ثبت عن أئمة السلف في هذا الباب^(٢١).

وهذا المذهب الفاسد الذي ذهب إليه أهل الاتحاد والحلول من غلاة الصوفية وغيرهم، يلزمهم بأمور كثيرة فاحشة، ذهب كثير منهم إليها فعلاً، وأنا أذكر هذه اللوازم فيما يلي:

(١) أن الله تعالى هو عين هذا الكون؟. فإله هو القرد والخنزير والكلب والعذرة والأنجاس والفرج والذكر والواطىء والموطوء والزاني والزانية

وإبليس وفرعون وهامان وموسى وعيسى ، تعالى الله عما يقولون علواً كبيراً.

(٢) أن كلام الله تعالى كل ما في الكون من الكفر والإسلام والشرك والتوحيد والصدق والكذب والظلم والعدل والسحر والشعر والنثر وكلام المجوس وكلام الوثنية وكلام فرعون وكلام إبليس وكلام جميع المشركين هو بعينه كلام الله .

(٣) إنكار كون القرآن والتوراة والزبور من كلام الله الحقيقي ، لأن القرآن عندهم هو عين الله تعالى والكلام والتكلم هما شيء واحد فلا خالق ولا مخلوق ، بل الوجود واحد ، وفي ذلك يقول الإمام ابن القيم يرحمه الله :

وأنت طوائف الاتحاد بملة	طمست على ما قال كل لسان
قالوا : كلام الله كل كلام ها	ذا الخلق في حي وفي إنسان
نظماً ونثراً زوره وصحيحه	صدقا وكذبا واضحا البطلان
فالسب والشتم القبيح وقذفهم	للمحصنات وكل نوع أغاني
والنوح والتعزيم والسحر المبيد	ن وسائر البهتان والهذيان
هو عين قول الله جل جلاله	وكلامه حقاً بلا نكران
إذ أصلهم أن الإله حقيقة	عين الوجود وعين ذي الأكوان ^(٢٢)

المذهب الثاني : مذهب الفلاسفة اليونان الكفرة ومن تبعهم من المتفلسفة في الإسلام^(٢٣) . حيث قالوا : " إن كلام الله تعالى هو ما يفيض على النفوس من المعاني ، إما من العقل الفعال^(٢٤) ، أو من غيره "^(٢٥) .

قلت : هذا الذي قالوا : " إنه الفيض " ليس إلا خيالاً ، والفرق بينه وبين

الكلام النفسي : أن الخيال نوع من الوسوس ، والكلام النفسي تقدير الكلام وإرادته في النفس .

وهذا القول في غاية من الفساد . وهو مخالف للعقل والنقل والشرع واللغة والعرف في آن واحد ، لأن الفيض لا يسمى كلاماً ، لا في لغة من اللغات ولا في عرف بني آدم كلهم أولهم وآخرهم ، ولا في شرع من الشرائع .

فإن الكلام ما تضمن كلمتين بالإسناد^(٢٦) ، والكلمة لفظ وضع لمعنى مفرد . فما لم يكن لفظاً مفهوماً ذا معنى مسموعاً بالأذان لا يسمى كلاماً البتة ، لا في لغة من اللغات ، ولا في شرع من الشرائع ، ولا في عقل من العقول السليمة .

وهذا المذهب الباطل يلزم منه أمور فاسدة ، منها :

(١) تكذيب القرآن الكريم ، والتوراة ، والإنجيل ، والزبور ، وغيرها من كتب الله تعالى . فإنها كلها من كلام الله على الحقيقة ، تكلم الله تعالى بها . وهي ألفاظ وكلمات وكلام حقيقي مسموع من الله تعالى ، وليست فيضاً فاض على النفوس .

(٢) تكذيب رسل الله تعالى وأنبيائه ، فإنهم أخبروا عن الله تعالى بكلام حقيقي وكلمات صادقة . فقالوا : قال الله كذا ونادى كذا وأمر بكذا ونهى عن كذا ، وهذا كله أنواع للكلام الحقيقي المركب من الألفاظ والكلمات ، وليس ذلك من الفيض في شيء .

(٣) أن هذا القرآن وغيره من الكتب إنما هو من إنشاء الرسل ، لأن العقل الفعال قد أفاض على نفوسهم الفيض فقط ، لا الألفاظ ، وهذا غاية في الفساد .

وفي بيان شناعة قول هؤلاء الكفرة يقول الإمام ابن القيم :

وأن ابن سينا القرمطي مصانعا فرآه فيضاً فاض من عقل هوّال
للمسلمين بإفك ذي بهتان ويقول أيضاً :

ومضى على هذي المقالة أمة خلف ابن سينا فاغثوا بلبان
منهم نصير الكفر في أصحابه الناصرين لملة الشيطان^(٢٧)
وقال يرحمه الله أيضاً :

وأتى ابن سينا بعد ذاك مصانعا للمسلمين فقال بالإمكان
وكذا أتى الطوسي بالحرب الصّر يح بصارم منه وسل لسان
وأتى إلى الإسلام يهدم أصله من أسه وقواعد البنيان
عمر المدارس للفلاسفة الألى كفروا بدين الله والقرآن
وأتى إلى أوقاف أهل الدين يند قلها إليهم فعل ذي أضغان
وأراد تحويل الشريعة بالنوا ميس التي كانت لدى اليونان
وأشار أن يضع التتار سيوفهم في عسكر الإيمان والقرآن
حتى بكى الإسلام أعداء اليهود كذا المجوس وعابد الصلبان
وبوده لو كان في أحدٍ وقد شهد الواقعة مع أبي سفيان^(٢٨)

المذهب الثالث : مذهب الجهمية الأولى والمعتزلة ، وهو أن كلام الله تعالى شيء منفصل عن الله تعالى ، ومخلوق خلقه الله تعالى^(٢٩) .

وبناء على ذلك قالوا : القرآن كلام الله بمعنى أنه تعالى قد خلقه وإنه مخلوق^(٣٠) ، وأن إضافة الكلام إلى الله إضافة تشريف ، كبيت الله ، لا إضافة الصفة إلى الموصوف .

وقد أقاموا على هذا المذهب الباطل فتنة القول بخلق القرآن ، وما جروه على الإسلام وأئمة الإسلام من المحن^(٣١) .

وهذا المذهب كذلك باطل مخالف لعقيدة السلف في كلام الله تعالى ، وأنه كلام الله غير مخلوق .

وقد سبق الاستدلال لمذهب السلف الصالح فإن قوله تعالى : ﴿ فَأَجِرْهُ حَتَّى يَسْمَعَ كَلَامَ اللَّهِ ﴾ [التوبة : ٦] [التوبة : ٦] صريح جداً في أن القرآن كلام الله تعالى وقوله عليه الصلاة والسلام : " من نزل منزلاً فقال أعوذ بكلمات الله التامات من شر ما خلق . . . " ^(٣٢) صريح في أنه ليس بمخلوق فإن كلام الله تعالى لو كان مخلوقاً ما جاز الاستعاذة به ، لأن الاستعاذة بالمخلوق شرك .

وقد كفرهم أئمة السنة وأعلام هذه الأمة ، وحذروا منهم وجعلوهم كاليهود والنصارى بل أشد منهم ، وجعلوهم من أعظم الملاحدة والزنادقة^(٣٣) .

وقد ثبت هذا التكفير منهم لهؤلاء القائلين بخلق القرآن ، ثبوتاً متواتراً ، لا يقبل النقيض ومن هؤلاء المكفرين لهم كبار أئمة الحنفية أمثال أبي حنيفة وأبي يوسف ومحمد بن الحسن وغيرهم^(٣٤) . على أنه لا يؤخذ من هذا النقل عن السلف وجوب إطلاق لفظ الكفر على كل من قال بخلق القرآن ، حتى يناقش وتظهر عليه الحجة ، ويصرُّ بعد ظهور الحجة فحينئذ يكفر ولا شك . لأنه ليس كل من يطلق في حقهم لفظ الكفر إجمالاً ، يطلق على التعيين بل تحتاج المسألة إلى تفصيل ليس هذا مكانه^(٣٥) .

وفي ذلك يقول الإمام ابن القيم رحمه الله تعالى :

ولقد تقلد كفرهم خمسون في عشر من العلماء في البلدان
واللالكائي الإمام حكاه عند هم بل حكاه قبله الطبراني^(٣٦)
أقول : وهذا المذهب أيضاً في غاية البطلان وهو مستلزم لبعض اللوازم
الباطلة، منها :

(١) إبطال الشرائع ، لأن الشرائع والنبوات كلها بأمر الله تعالى وكلامه ،
فإذا بطل كلام الله تعالى بطل كل ذلك ، وهذا هو عين الإلحاد .

(٢) إبطال ألوهية الله سبحانه ، لأن من لا يستطيع أن يتكلم لا يمكن أن
يستحق الألوهية ، ولا يمكن أن يوصف بالقدرة والعلم ، فإن الله تعالى
قال في إبطال ألوهية عجل السامري ﴿ أَلَمْ يَرَوْا أَنَّهُ لَا يُكَلِّمُهُمْ وَلَا
يَهْدِيهِمْ سَبِيلًا ﴾ [الأعراف : ١٤٨] ، وقال : ﴿ أَفَلَا يَرَوْنَ أَنَّ الْأَرْضَ يَرْجِعُ إِلَيْهِمْ
قَوْلًا وَلَا يَمْلِكُ لَهُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا ﴾ [طه : ٨٩] ، فأبطل ألوهيته بنفي
الكلام ونفي القدرة عنه .

المذهب الرابع : مذهب الأشعرية والماتريدية : وهو أن كلام الله تعالى معنى
نفسي ليس فيه حروف ولا صوت ، وهو شيء لا يقبل التجزؤ ، وهذا القرآن
الكريم العربي عبارة عن ذلك الكلام النفسي ، وهذا القرآن العربي مخلوق ،
وقالوا في تعريفه : " هو قائم بالله ، شيء واحد ، ليس له بعض ولا عد ولا
له نهاية ولا بداية"^(٣٧) . وهو المعنى القائم بالنفس "^(٣٨) .

وقالوا : " إن الله تعالى متكلم بكلام واحد ، وهو صفة له أزلية ، ليست
من جنس الحروف والأصوات ، وهي صفة منافية لل سكوت والآفة "^(٣٩) .

وقالوا : " صانع العالم متكلم بكلام واحد أزلي قائم بذاته ليس من جنس
الحروف والأصوات ، غير متجزئ ، مناف لل سكوت والآفة والخرس

وهذه العبارات مخلوقة ، لأنها أصوات وهي أعراض ، وسميت كلام الله [مجازاً] لدلالاتها عليه ، - والكلام النفسي - إن عبر عنه بالعربية فهو قرآن ، وإن عبر عنه بالعبرية فهو تورا ، وإن عبر عنه بالسريانية فهو إنجيل^(٤٠) .

" وهذا القرآن العربي مخلوق^(٤١) . بل هذا القرآن مخلوق لفظه ومعناه "^(٤٢) . ويقولون : (لا يجوز أن يقال : القرآن غير مخلوق . لئلا يتبادر إلى الذهن الألفاظ والحروف [فإن كل ذلك مخلوق] .

بل يقال : " القرآن كلام الله غير مخلوق " ، فيكون الحكم بكونه غير مخلوق على " كلام الله " لا على " القرآن "^(٤٣) .

وقالوا : " وهذه الألفاظ تسمى قرآناً وكلام الله ، ليؤدى كلام الله بها ، وهي في أنفسها مخلوقة .

ومشاينا يقولون : القرآن كلام الله غير مخلوق ، ولا يقولون عند الإطلاق ، إن القرآن ليس بمخلوق ، لئلا يسبق إلى وهم السامع أن هذه العبارات المترتبة من الحروف والأصوات ليست بمخلوقة كما يقول الحنابلة "^(٤٤) .

وقالوا : " يقال : القرآن كلام الله غير مخلوق ، ولا يقال : القرآن غير مخلوق ، لئلا يسبق إلى الفهم أن المؤلف من الأصوات والحروف قديم كما ذهبت إليه الحنابلة جهلاً وعناداً "^(٤٥) .

وقد صرحوا بأن المخلوق والحادث مترادفان ، كما أن القديم وغير الحادث مترادفان ، وقد صرحوا بأنه لا خلاف بينهم وبين المعتزلة في أن القرآن العربي مخلوق .

فهم ونحن جميعاً متفقون على أن هذا القرآن العربي مخلوق ، وإنما الخلاف بينهم وبين المعتزلة في وجود الكلام النفسي ، فهم يؤمنون بالكلام النفسي ،

والمعتزلة لا يعترفون بالكلام النفسي^(٤٦).

وقالوا : القرآن قرآنان ، قرآن بمعنى الكلام النفسي وهو غير مخلوق ، وقرآن بمعنى الكلام اللفظي المركب من الحروف والأصوات فهو مخلوق .

وكذا الكلام كلامان ، كلام بمعنى الكلام النفسي وهو غير مخلوق ، وكلام بمعنى الكلام اللفظي وهو القرآن العربي وهو مخلوق .

فإذا أضيف الكلام اللفظي أو القرآن العربي إلى الله تعالى فمعنى ذلك أنه مخلوق لله تعالى ليس من تأليفات المخلوق ، وإذا أضيف الكلام النفسي إلى الله تعالى فمعناه أنه صفة لله تعالى^(٤٧).

وقالوا في شرح كون هذا القرآن العربي مخلوقاً : إنه مخلوق بعد التوسط كاسب إما بإيجاد الصوت حتى يسمعه الملك أو الرسول ، وإما بإيجاد النقوش في اللوح المحفوظ ، وإما بخلق إدراك الحروف في قلب الملك أو الرسول ، وإما بخلق الحروف في لسانه بلا اختيار^(٤٨).

بل صرحوا بأن الله تعالى قد خلق صوتاً معروفاً فأسمع جبرائيل كلامه النفسي بذلك الصوت والحروف فحفظه جبريل ونقله إلى النبي صلى الله عليه وسلم ، وكلام قديم ليس بحروف ولا صوت^(٤٩).

وسايرهم الكوثري ، فقال : " والواقع أن القرآن في اللوح المحفوظ وفي لسان جبريل عليه السلام وفي لسان النبي صلى الله عليه وسلم مخلوق "^(٥٠).

وكذا سايرهم في ذلك الشيخ محمد عبده^(٥١).

وصرحوا بأن القرآن مخلوق في اللوح المحفوظ أو في ملك ، وهو كلام الله مجازاً لا حقيقة^(٥٢).

وقالوا : إن القرآن الكريم ليس كلام الله على الحقيقة ، وإنما هو كلام

مجازي، لأنه دال على كلام الله النفسي، فالكلام الحقيقي لله تعالى هو ذلك النفسي، وأما هذا اللفظي فهو عبارة عنه^(٥٣). وعلى هذه العقيدة قام مذهب الأشعرية أيضاً حذو النعل بالنعل والقذة بالقذة^(٥٤).

تذييل فيه ثلاثة تنبيهات :

الأول : أن مذهب الكلابية هو أصل لمذهب الماتريدية والأشعرية، غير أنه قد اشتهر أن الكلابية قالوا : كلام الله الحقيقي هو الكلام النفسي وهو المعنى القائم بذاته تعالى، الذي ليس بحرف ولا صوت، وهذا القرآن العربي ليس بكلام الله على الحقيقة، وإنما هو كلام الله على سبيل المجاز، لأنه حكاية عن كلام الله الحقيقي وهو النفسي، ولما ظهر الأشعري قال بقول ابن كلاب، ولكنه لم يقل إن هذا القرآن العربي حكاية عن كلام الله، بل قال : إن هذا القرآن عبارة عن كلام الله تعالى، لأن الحكاية لا بد أن تكون على مثل المحكي عنه، ولا يمكن أن يكون هذا القرآن مثل كلام الله تعالى لأجل هذا غير الأشعري عبارته في تحرير مذهبه، لأن حكايته كلام الله أمر غير ممكن، وفي هذا قال الإمام أبو حامد أحمد بن محمد الإسفراييني الشافعي (٤٠٦هـ)^(٥٥) :

"ذهب الأشعري ومن تابعه إلى أن الأمر هو معنى قائم بالنفس . . . وهذه الألفاظ والأصوات ليست عندهم أمراً ولا نهياً، وإنما هي عبارة عنه .

وكان ابن كلاب عبدالله بن سعيد القطان يقول :

"هي [أي الألفاظ] حكاية عن الأمر، وخالفه أبو الحسن الأشعري قبي ذلك، فقال : لا يجوز أن يقال : "إنها حكاية"، لأن الحكاية تحتاج إلى أن تكون مثل المحكي، ولكن هو : [هي، أي الألفاظ] عبارة عن الأمر القائم بالنفس، وأقروا مذهبهم على هذا"^(٥٦).

أقول: هذا هو المشهور، أي الفرق بين الحكاية والعبارة، وأن القول بالحكاية هو مذهب ابن كلاب، والقول بالعبارة مذهب الأشعري، ولكن رأيت في المصادر القديمة التي ذكر فيها مذهب ابن كلاب أن هذا القرآن عبارة عن الكلام النفسي. قال الإمام أبو الحسن الأشعري في نقل مذهب ابن كلاب في القرآن وكلام الله تعالى: "قال عبدالله بن كلاب: . . . إن الكلام ليس بحروف ولا صوت، ولا ينقسم ولا يتجزأ ولا يتبعض ولا يتغاير، وأنه معنى واحد . . . وأن العبارات عن كلام الله سبحانه تختلف وتتغير . . . وإنما سمي كلام الله عربياً لأن الرسم الذي هو عبارة عنه عربيٌ فسمي عربياً لعله، وكذلك سمي عبرانياً لعله وهو أن الرسم الذي هو عبارة عنه عبراني" ^(٥٧).

أقول: دل هذا النص على أن مذهب ابن كلاب أن القرآن العربي هو عبارة عن الكلام النفسي، مثل قول الأشعري، وقد رأيت في بعض المصادر أن ابن كلاب قال: "إن القرآن حكاية أو عبارة عن الكلام النفسي" ^(٥٨)، فدل على أن ابن كلاب لم يفرق بين الحكاية والعبارة، والله أعلم.

أقول: وإلى القول باتحاد الحكاية والعبارة يشير الإمام ابن القيم رحمه الله، حيث يقول في نقل مذهب الأشعري:

زعمو القرآن عبارة وحكاية قلنا كما زعموه قرآنان ^(٥٩)

بل يشير كلام الإمام ابن القيم إلى أن الخلاف في الحكاية والعبارة خلاف لفظي لا ثمره له، وليس بخلاف حقيقي، حيث قال:

وكذلك اختلفوا فقل حكاية عنه وقيل عبارة لبيان

إذ كان ما يحكى كمحكي وها ذا اللفظ والمعنى فمختلفان

ولذا يقال حكى الحديث بعينه إذ كان أوله نظير الثاني

فلذلك قالوا : لا نقول حكاية ونقول ذاك عبارة الفرقان

والآخرون يرون هذا البحث لف ظيماً وما فيه كبير معان^(٦٠)

والحاصل أن مذهب ابن كلاب والأشعري ليس بينهما كبير فرق، بل هما مذهب واحد، وإنما الفرق في التعبير عن كل مذهب من هذين المذهبين.

التنبيه الثاني : اختلف الماتريدية والأشعرية في سماع كلام الله بعد الاتفاق على أن هذا القرآن العربي مخلوق، وأنه ليس بكلام الله على الحقيقة، وأنه عبارة أو حكاية عن الكلام النفسي، وأن كلام الله هو الكلام النفسي الذي هو المعنى القائم بالله، الذي ليس بحرف ولا صوت.

اختلفوا هل كلام الله النفسي يسمع أم لا؟ فذهب الماتريدية إلى أن كلام الله النفسي لا يُسمع، لأنه لما لم يكن بحرف ولا صوت فلا يتعلق به السمع، لأن كلام الله تعالى النفسي ليس من المسموعات^(٦١).

وقالت الأشعرية إن هذا القرآن العربي مخلوق وأنه ليس بكلام الله على الحقيقة، وإنما هو كلام الله على سبيل المجاز، لأنه دال على كلام الله النفسي الحقيقي، الذي ليس بحرف ولا صوت، وكلام الله النفسي يجوز أن يكون مسموعاً، فجوزوا سماع كلام الله النفسي الذي ليس بحرف ولا صوت^(٦٢).

قلت : قول الماتريدية أقرب إلى العقل بالنسبة إلى مذهبهم في الكلام النفسي، لأن الكلام إذا كان نفسياً ليس بحرف ولا صوت كيف يجوز أن يكون مسموعاً، لأجل هذا قالوا : إنه لا يمكن أن يكون مسموعاً، وأما قول الأشعرية بأن الكلام النفسي يجوز أن يكون مسموعاً فأبعد عن العقل ومتناقض، لأن كلام الله تعالى لما كان نفسياً ليس بحرف ولا صوت فكيف يمكن أن يكون مسموعاً؟ فقولهم : إن كلام الله نفسي ليس بحرف ولا بصوت يقتضي أن لا يكون مسموعاً.

وقولهم: "إن كلام الله مسموع" يقتضي أن يكون لفظياً بحرف وصوت
وهذا تناقض واضح.

ولأجل هذا التناقض صرح الرازي بنفي سماع كلام الله، لأن علة صحة
السماع هي الصوت، ولا حرف ولا صوت في كلام الله عندهم، لأن
كلامه نفسي^(٦٣).

كما صرح بعض الأشعرية أن معنى سماع كلام الله هو أن يكون مفهوماً
معلوماً، لا مسموعاً بالأذان^(٦٤).

أقول: هذا بعينه هو مذهب الماتريدي، فقد صرح الماتريدي في سماع
كلام الله بأن الله تعالى أعلمنا كلامه كما أعلمنا قدرته وربوبيته^(٦٥).

ومعلوم أن القدرة والربوبية ليستا من المسموعات، بل هما من المفهومات
والمعلومات، فكذا كلام الله عندهم من المعلومات لا من المسموعات.

التنبية الثالث: وهو أن الماتريدية أصرح بالقول ببدعة خلق القرآن من
الأشعرية الذين اكتفوا بالقول ببدعة خلق القرآن في مقام التعليم^(٦٦).

وبعد: فقد اتضح من خلال أقوالهم أنهم جميعاً قائلون ببدعة القول بخلق
القرآن، وقائلون ببدعة القول بالكلام النفسي، وبعد ذلك نتقل إلى المبحث
الثاني لتحدث عن نشأة بدعة الكلام النفسي، وذلك تمهيداً للرد عليهم،
والله المستعان وعليه التكلان.

المبحث الثاني

نشأة بدعة الكلام النفسي

أول ما ابتدأ الانحراف في صفة كلام الله على يد " الجعد بن درهم " (١٢٤هـ) في أواخر القرن الأول وأوائل القرن الثاني ، فادعى أن الله تعالى لم يتخذ إبراهيم خليلاً ، ولم يكلم موسى تكليماً .

ثم تلاه " الجهم بن صفوان " الترمذي (١٢٨هـ) فتجرد لهذه المقالة ، ورفع لواء التعطيل ، ودعا إلى بدعة القول بخلق القرآن ، فنسبت هذه المقالة ونسبت الفرقة القائلة بها إليه .

ولم يكن المعتزلة في الأصل معطلة للصفات ولكنهم قالوا فيما بعد بمقالة التعطيل وخلق القرآن^(٦٧) ، لأجل احتكاكهم بالجعد ثم بالجهم خاصة والجهمية عامة ، فانتشرت مقالة الجهمية بواسطة المعتزلة .

وتجرد للدعوة إلى هذه المقالة معطلة كانوا منتسبين إلى مذهب الإمام أبي حنيفة في الفقهيات ، أمثال القاضي إسماعيل بن حماد حفيد الإمام أبي حنيفة ، وكان هذا الجهمي من رؤوس القائلين بخلق القرآن ودعاتهم . وكان ينسب هذه المقالة الفاسدة إلى جده الإمام أبي حنيفة رحمه الله تعالى (١٥٠هـ) ، وكان يقول في مجلس المأمون (٢١٨هـ) : " القول بخلق القرآن كان دين أبي وجدي " ، هكذا كان يكذب عليهما بشهادة أئمة الإسلام^(٦٨) .

وتلاه بشر المريسي (٢٤٠هـ) ، وقد أثر هذا المبتدع تأثيراً سيئاً على من بعده من الماتريديّة والأشعرية الجهمية بتأويلاته الباطلة التي هي عين التحريفات والتعطيل .

فقد صرح شيخ الإسلام (٧٢٨هـ) بأن هذه التأويلات الموجودة اليوم في

كتب المعتزلة وكتب الأشعرية، أمثال ابن فورك (٤٠٦هـ)، والغزالي (٥٠٥هـ)، والرازي (٦٠٦هـ)، وغيرهم، هي بعينها تأويلات بشر المريسي^(٦٩). وكان هذا فقيهاً وتلميذاً للإمام أبي يوسف رحمه الله^(٧٠) ولكنه لم يسر سيرة الإمام أبي يوسف، بل خرج على عقيدته، وسائر الجهمية والمرجئة ورفع لواء التعطيل.

وتلاه أحمد بن أبي دؤاد (٢٤٠هـ)، الذي كان رأس فتنة القول بخلق القرآن، وأخذ عن المريسي زندقته، فعُذّب كثير من أئمة الإسلام، وقُتل كثير منهم بسبب هذا المعطل الذي كان رئيساً للقضاة أيام المعتصم، وكان مقرباً عند المأمون، فجرد سيف الدولة على علماء السنة. وقد بلغ به الغلو إلى حد أنه أفتى بقتل الإمام أحمد، ووصل في الإلحاد إلى حد أنه كتب على ستارة الكعبة: "ليس كمثله شيء وهو العزيز الحكيم" بدل ﴿وَهُوَ السَّمِيعُ الْبَصِيرُ﴾^(٧١) [الشورى: ١١].

كما تلاه الخصاص (٢٦١هـ)، وكان مقدماً عند المهتدي محمد بن الواثق (٢٥٦هـ) وقد بلغ في التجهم إلى حد أنه قال الناس: "هو ذا يُحيي دولة ابن أبي دؤاد"، وكان يقدم الجهمية، ولما قتل المهتدي نهب الخصاص فأراح الله الناس من شره.

ثم رفع لواء التعطيل محمد بن شجاع البلخي الثلجي (٢٦٦هـ)، وكان تلميذاً لبشر المريسي السابق الذكر (٢٢٨هـ)، فورث منه زندقته في التعطيل والقول بخلق القرآن والعداوة لأهل السنة.

وقد كان كذاباً وضاعاً على رسول الله صلى الله عليه وسلم بشهادة أئمة الجرح والتعديل، وكفره القواريري وإسماعيل القاضي وغيرهما، وقد بلغ به الكذب والتقول والحق ضد أئمة الهدى من أهل السنة إلى حد أنه كان يقول:

" عند أحمد كتب الزنادقة " .

فكتبُ السنة عنده كتبُ الزندقة ، وقد بلغ به الغلو في القول بخلق القرآن إلى أنه أوصى وصية كان فيها : لا يعطى من ثلثي إلا من قال : " القرآن مخلوق " ، وجرح أئمة السنة فيه واسع الذيل^(٧٢) .

وهكذا عمّت هذه الفتنة - فتنة القول بخلق القرآن - وإنكار صفات الله تعالى . وكانت الأمة حينذاك طائفتين : طائفة أهل السنة وعلى رأسهم الإمام أحمد ، وفرقة أهل البدع من الجهمية والمعتزلة . ولذا كان لكل واحدة من هاتين الطائفتين مقالة تختص بها ، فكانت مقالة أهل السنة أصحاب الحديث أن هذا القرآن العربي الذي نقرأه نحن هو بعينه كلام الله تعالى ، بحرف وصوت على الحقيقة ، فالله تعالى تكلم به حرفاً وصوتاً على وجه الحقيقة ، وهذا كان هو المفهوم للكلام لغة وعرفاً وعقلاً وشرعاً .

وكان بنو آدم جميعاً لا يعرفون عن الكلام إلا هذا المفهوم .

وأما مقالة الجهمية والمعتزلة فهي أنهم كانوا يقولون : إن هذا القرآن العربي مخلوق ، قد خلقه الله تعالى ، وليس هذا كلام الله تعالى على الحقيقة ، فإن صدور هذا الكلام العربي من الله تعالى محال ، لأنه يستلزم التشبيه والمماثلة للمخلوق ، وإغما هذا القرآن العربي يطلق عليه كلام الله مجازاً ، بمعنى أنه تعالى قد خلقه في محل من المحال ، فالإضافة إليه تعالى إضافة تشريف ، كبيت الله وناقة الله وروح الله .

وكانت هذه المقالة مقالة الجهمية الأولى ، والمعتزلة أيضاً ، فصاروا جهمية بهذا الاعتقاد .

ولم يعرفوا قولاً ثالثاً من لدن آدم عليه السلام إلى ذلك الوقت ، وكان

ذلك إجماعاً مركباً على هذين القولين، إذ لم يكن قول آخر موجوداً إلى ذلك الحين، وهذا معنى، قول أهل العلم: والأمة إذا اختلفوا على قولين أو أقوال كان ما عداهما أو ما عداها باطلاً، فلو كان الحق قولاً آخر لقال به بعضهم، لأن الحق لا يعدو أقاويلهم، لعدم القائل بالفصل، لأنهم أجمعوا على حصر الأقوال في تلك الحادثة، وهذا يسمى إجماعاً مركباً^(٧٣).

فإن الأمة إذا اجتمعت مثلاً على قولين كان إجماعهم حقاً، ويكون الحق أحد هذين القولين، لا يكون الحق قولاً ثالثاً، فيكون القول الثالث باطلاً البتة، لأن القول الثالث يكون مبطلاً للإجماع^(٧٤). وقد كان هذا الإجماع المركب مستمراً بين أهل السنة وأهل البدع إلى أن ظهر شخص يدعى عبدالله بن سعيد القطان البصري المعروف بابن كلاب المتوفى بعد (٢٤٠هـ). فتأمل في الأمة المسلمة سنيهم ومبتدعهم، فرآهم فرقتين في صفات الله تعالى، ولا سيما صفتي العلو والكلام، ولكن المناظرة إنما دارت على صفة الكلام، وأراد الصلح بين الطائفتين ولم ينحز لا إلى أهل السنة ولا إلى أهل البدع، زعماً منه أنه في ذلك مصلح بين الأمة المتمزقة المتناحرة، ففكر في ابتداع قول ثالث خارج عن ذلك الإجماع، فأحدث بدعة القول بالكلام النفسي في خلق الكلام اللفظي، ليرشد المعتزلة بأنكم إن أردتم بخلق القرآن هذا القرآن العربي المحفوظ فأنتم على الحق وخصومكم على الباطل، وإن زعمتم أن الله تعالى ليس له كلام نفسي فأنتم على الباطل وخصومكم على الحق، وقال لأهل السنة: إن أردتم بقولكم إن "القرآن كلام الله غير مخلوق" الكلام النفسي الذي ليس فيه حرف ولا صوت، فأنتم على الحق وخصومكم على باطل، وإن أنتم أردتم أن هذا القرآن العربي كلام الله على الحقيقة وأنه غير مخلوق، فأنتم على باطل وخصومكم على الحق.

الحاصل: أن ابن كلاب قد ابتدع بدعة القول بالكلام النفسي، وخرج

على إجماع الفريقين من أئمة السنة وأئمة البدع، وخرق إجماعهم، وابتدع قولاً ثالثاً ظنه صواباً، وخالف العقل والنقل والعرف واللغة في ابتداعه بدعة القول بالكلام النفسي، لأن بني آدم جميعاً لا يعرفون للكلام هذا المفهوم، لأن الإجماع كان منعقداً بين المسلمين والكفار من العقلاء على أن الكلام حروف وأصوات، ولم يخطر ببالهم الكلام النفسي^(٧٥).

هكذا قدر الله تعالى أن ابن كلاب أول من خرق هذا الإجماع المنعقد بين المسلمين في مفهوم الكلام، وأنه أول من غير هذا المفهوم، وأنه أول من ابتدع بدعة القول بالكلام النفسي^(٧٦). ولتوضيح ما تقدم أذكر نصاً مهماً للإمام أبي نصر عبيد الله بن سعيد بن حاتم الوائلي السجزي (٤٤٤هـ).

قال رحمه الله مبيناً تاريخ نشأة بدعة القول بالكلام النفسي: "اعلموا - أرشدنا الله وإياكم - أنه لم يكن خلاف بين الخلق على اختلاف نحلهم من أول الزمان إلى الوقت الذي ظهر فيه ابن كلاب (٢٤٠هـ)، والقلايسي والصالحى والأشعري (٣٢٤هـ)، وأقرانهم الذين يتظاهرون بالرد على المعتزلة، وهم معهم، بل أحسن حالاً منهم، في أن الكلام لا يكون إلا حرفاً وصوتاً ذا تأليف واتساق، وإن اختلفت به اللغات، وعبر عن هذا المعنى الأوائل^(٧٧) الذين تكلموا في العقلية. وقالت العرب: الكلام اسم وفعل وحرف جاء لمعنى، فالاسم مثل زيد وعمرو وحامد، والفعل مثل جاء وذهب وقام وقعد، والحرف الذي يجيء لمعنى^(٧٨) مثل: هل، وبل، وما شابه كل ذلك، فالإجماع منعقد بين العقلاء على كون الكلام حرفاً وصوتاً.

فلما نبغ ابن كلاب وأضرابه، وحاولوا الرد على المعتزلة عن طريق مجرد العقل، وهم لا يخبرون أصول السنة ولا ما كان السلف عليه، ولا يحتاجون بالأخبار الواردة في ذلك، زعموا منهم أنها أخبار آحاد، وهي لا توجب

عندهم علماً^(٧٩)، وألزمتهم المعتزلة أن الاتفاق حاصل على أن الكلام حرف وصوت، ويدخله التعاقب والتأليف، وذلك لا يوجد في الشاهد إلا بحركة وسكون، ولا بدله من أن يكون ذا أجزاء وأبعاد^(٨٠). وما كان بهذه المثابة لا يجوز أن يكون من صفات الله تعالى^(٨١). لأن ذات الله سبحانه لا توصف بالاجتماع والافتراق والكل والبعض والحركة والسكون، وحكم الصفة الذاتية حكم الذات^(٨٢).

قالوا: فعلم بهذه الجملة أن الكلام المضاف إلي الله سبحانه خلق له، أحدثه وأضافه إلى نفسه، كما تقول: عبد الله وخلق الله وفعل الله، فضايق بآبن كلاب وأضرابه النفس عن هذا الإلزام لقلة معرفتهم بالسنن، وتركهم قبولها وتسليمهم العنان إلى مجرد العقل فالتزموا ما قالته المعتزلة^(٨٣) وركبوا مكابرة العيان^(٨٤)، وخرقوا الإجماع المنعقد بين الكافة، المسلم والكافر^(٨٥)، وقالوا^(٨٦) للمعتزلة: الذي ذكرتموه ليس بحقيقة الكلام، وإنما يسمى ذلك كلاماً على المجاز، لكونه حكاية أو عبارة عنه^(٨٧)، وحقيقة الكلام معنى قائم بذات المتكلم^(٨٨). فمنهم من اقتصر على هذا القدر، ومنهم من احترز عما علم دخوله على هذا الحد فزاد فيه: ما ينافي السكوت والآفات المانعة^(٨٩) عن الكلام ثم خرجوا^(٩٠) عن هذا إلى أن إثبات الحرف والصوت في كلام الله تجسيم، وإثبات اللغة فيه تشبيه^(٩١)، وتعلقوا بشبه منها قول الأخطل:

إن البيان من الفؤاد وإنما جعل اللسان على الفؤاد دليلاً
فغيروه وقالوا:

إن الكلام لفي الفؤاد وإنما جعل اللسان على الكلام^(٩٢) دليلاً

وزعموا أن لهم حجة على مقالته في قول الله سبحانه: ﴿وَيَقُولُونَ فِي

أَنْفُسِهِمْ لَوْلَا يُعَذِّبُنَا اللَّهُ بِمَا نَقُولُ ﴿ [المجادلة : ٨] وفي قوله عز وجل : ﴿ فَأَسْرَهَا يُوسُفُ فِي نَفْسِهِ وَلَمْ يُبْدِهَا لَهُمْ قَالَ أَنْتُمْ شَرُّ مَكَانًا ﴾ [يوسف : ٧٧] ، واحتجوا بقول العرب : " أرى في نفسك كلاماً وفي وجهك كلاماً " ^(٩٣) . فأجأهم الضيق مما دخل ^(٩٤) عليهم في مقاتلتهم إلى أن قالوا : " الأخرس متكلم ، وكذا الساكت والنائم ، ولهم في حال الخرس والسكوت والنوم كلام هم متكلمون به " .

ثم أفصحوا بأن الخرس والسكوت ، والآفات المانعة عن النطق ليست بأضداد الكلام ، وهذه مقالة تبين فضيحة قائلها في ظاهرها من غير ردٍّ عليه ^(٩٥) . ومن علم منه خرق إجماع الكافة ومخالفة كل عقل وسمعي قبله لم يُناظر ، بل يُجانب ، ويُقمع ، ولكن لما عُدِمَ مَنْ ينظر في أمر المسلمين مُحَنًّا بالكلام مع من ينبغي أن يلحق بالمجانين " ^(٩٦) أ . هـ .

قلت : وقريب منه كلام لابن الجوزي في نشأة بدعة الكلام النفسي وتطوره ومفاسده ، ولكن حول الأشعري ^(٩٧) . وقد اعترف بهذه الحقيقة الشهرستاني أيضاً ^(٩٨) .

وفيما يلي أذكر إجمال ما يشتمل عليه هذا النص - نص الإمام السجزي المتقدم ذكره - من الفوائد المهمة :

الأولى : بيان نشأة بدعة القول بالكلام النفسي ، وكيف نشأ وكيف تطور ، وكيف صار مذهباً .

الثانية : أن أول من ابتدع هذه البدعة هو " ابن كلاب " ثم تولاها أضرا به .

الثالثة : أن بني آدم كلهم من المسلمين والكافرين كانوا مجتمعين على أن الكلام هو ما كان بحرف وصوت إلى زمن ابن كلاب .

الرابعة : أن ابن كلاب قد خرج على إجماع الأمة جمعاء : أهل السنة وأهل البدع .

الخامسة : تطور بدعة القول بالكلام النفسي حتى صار هذا مذهباً لفرقة كلامية .

السادسة : اختراع الشبهات لإثبات هذه البدعة ، وتشبث أهلها بتلك الشبهات الواهية .

السابعة : مخالفة أصحاب هذه البدعة العقل والنقل واللغة والعرف والإجماع والحس في آن واحد .

الثامنة : وقوع أهل هذه البدعة في الحماقات ومكابرة الحس والعيان والسفسطة .

التاسعة : موافقة أهل هذه البدع على أصل المعتزلة ، مما أدى بهم إلى أمور منكرة وحماقات واضحة .

العاشرة : تعطيل أهل هذه البدعة لصفة كلام الله تعالى ، ونسبة شيء آخر إلى الله تعالى . لأن ما كان من صفة الله تعالى وهو الكلام الحقيقي الذي كان بحرف وصوت قد عطلوه وقالوا : إنه مخلوق ، كقول المعتزلة سواء بسواء ، وما لم يكن صفة من صفات الله وهو الكلام النفسي الذي لم يكن معروفاً عند المسلمين ولا عند الكافرين ، ولم يكن يقره عقل ولا نقل ولا لغة ولا عرف ولا حس ولا مشاهدة - وهو الكلام النفسي - فقد تقولوه على الله وابتدعوه في الدين .

الحادية عشرة : قول أهل هذه البدعة بخلق القرآن ، وموافقتهم المعتزلة على هذا والتعطيل .

الثانية عشرة : أن أهل هذه البدعة قد فاقوا المعتزلة ، لأن المعتزلة كانوا مبتدعة للقول بخلق القرآن ، ولتعطيل صفة كلام الله ، ولم يكونوا مبتدعين ببدعة الكلام النفسي . بخلاف الأشعرية والماتريدية ، فإنهم زادوا على هذه البدعة بدعة الكلام النفسي ، فهم أسوأ حالاً من المعتزلة لكون بدعتهم أخف وبدعة هؤلاء مركبة ، وأثقل وأشد .

الثالثة عشرة : أنه من المعلوم بالاضطرار عن أحوال أئمة السنة وأكابر هذه الأمة أن القول بخلق القرآن كان من أعظم الإلحاد في أسماء الله وصفاته عند السلف .

وتكفير الجهمية بسبب قولهم بخلق القرآن وبسبب نفيهم لعلو الله تعالى ثابت عن كبار أئمة الإسلام ثبوتاً لا يحتمل النقيض ، وهو أمر متواتر عنهم ، واستفاض استفاضة لا مزيد عليها .

فإن السلف لم يحكموا على الجهمية بالكفر والزندقة والإلحاد إلا لأجل قولهم ببدعة خلق القرآن ، وبسبب نفيهم لعلو الله تعالى .

وأصحاب بدعة القول بالكلام النفسي كتبهم مكتظة بأن هذا القرآن العربي مخلوق ، وأنه ليس بكلام الله الحقيقي ، بل القرآن العربي كلام الله على المجاز بسبب أنه دال على كلام الله الحقيقي ، وأنه حكاية أو عبارة عن الكلام الحقيقي ألا وهو الكلام النفسي ، إلى غيرها من المفاصد التي توجد في طي القول ببدعة الكلام النفسي ، كما سنرى في المبحث القادم إن شاء الله تعالى .

المبحث الثالث

نقض وإبطال بدعة الكلام النفسي

اعلم أخي المسلم أن القول بالكلام النفسي إحدى حماقات أهل الكلام، وهو قول لا يقره عقل ولا نقل ولا لغة ولا عرف ولا إجماع.

وفيما يلي نذكر تفصيل هذا الإجمال في عدة من وجوه الرد على الكلام النفسي:

الوجه الأول : دليل إجماعي :

لقد أجمع بنو آدم جميعاً على أن الكلام هو اللفظ الدال على المعنى المفيد، وهو حروف وأصوات. وأما أن يكون الكلام شيئاً نفسياً لا حرف له ولا صوت، ويكون معنى واحداً ولا يقبل التجزؤ ولا يكون فيه الأمر ولا النهي ولا الإخبار والاستخبار فهذا النوع من الكلام لم يعرفه أحد من بني آدم.

وأول من عُرف عنه القول ببدعة الكلام النفسي إنما هو ابن كلاب المتوفى سنة (٢٤٠هـ)^(٩٩).

وإذا ثبت هذا وتقرر فليعلم المسلم طالب الحق والإنصاف أن الحق هو أن الكلام هو اللفظ الدال على معنى مفيد بحرف وصوت، وأن ما يدعيه أهل الكلام من بدعة الكلام النفسي خروج على إجماع جميع بني آدم.

الوجه الثاني :

دليل كون القول بالكلام النفسي بدعة، لأنه إذا تقرر من النصوص السابقة أن أول من ابتدع بدعة القول بالكلام النفسي إنما هو ابن كلاب المتوفى بعد

سنة (٢٤٠هـ)، ولم يعرفه قبله أحد من الصحابة ولا التابعين ولا الفقهاء ولا المحدثين ولم يخطر ببال أحد من أئمة هذا الدين .

دلّ هذا دلالة قاطعة لا تحتمل النقيض أن القول بالكلام النفسي بدعة في صميم الإسلام، وكفى بها ضللاً وإضللاً وإثماً ميبناً .

وإذ تقرر هذا وثبت أن القول بالكلام النفسي بدعة، فلا بد أن يكون مردوداً على صاحبه غير مقبول منه لكونه بدعة وضلالة، فإن النبي ﷺ قال : " من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه فهو رد " ^(١٠٠) . وقال ﷺ : " من عمل عملاً ليس عليه أمرنا فهو رد " ^(١٠١) ، وقال ﷺ " كل محدثة بدعة وكل بدعة ضلالة وكل ضلالة في النار " ^(١٠٢) .

وقد اعترف بكون القول بالكلام النفسي بدعة الشهرستاني أيضاً ^(١٠٣) .

الوجه الثالث :

أن القول ببدعة الكلام النفسي تحريف للدين وإفساد للعقيدة الإسلامية، وذلك لأنه قد سبق أن بدعة الكلام النفسي لا يقرها نقل ولا عقل ولا لغة ولا اصطلاح ولا عرف بني آدم .

وأن الكلام المتعارف عليه المفهوم عند الناس في التخاطب والمتبادر إلى أذهانهم إنما هو اللفظ الدال على المعنى المفهوم إخباراً أو إنشأً، بحرف وصوت كما سبق أيضاً .

ومعلوم أن الله تعالى إنما خاطب عباده بلغات يعرفونها ومصطلحات يفهمونها، ليعقلوا عن الله تعالى مراده، ويصح بذلك التكليف والأمر والنهي، لأن بناء الشرائع على كلام الله تعالى المعروف عند بني آدم من المكلفين، فقد قال الله تعالى : ﴿ وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانٍ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ

لَهُمْ ﴿إِبْرَاهِيمَ : ٤﴾ .

وإذا ثبت هذا فحمل تلك النصوص التي فيها "كَلَّمَ الله" و "تكلم" و "قال" و "يقول" و "نادى" و "ينادي" و "أمر" و "نهى" ونحوها على الكلام النفسي، الذي لا يعرفه بنو آدم في خطابهم، ولا يقبله عقل ولا نقل ولا لغة ولا عرف، ليس إلا تحريفاً وتقولاً على الله تعالى .

إذ لا شك أن القول بالكلام النفسي مصطلح جديد، مخترع بعد عهد التنزيل وبعد عهد العرب الفصحاء بدهور، وحمل نصوص الكتاب والسنة على المصطلحات الكلامية الصوفية المستحدثة بعد ذلك بأزمة متطاوله تحريف وإبطال، حتى باعتراف هؤلاء المتكلمين .

فقد قال الكوثري مجدد الماتريدية (١٣٧١هـ) : "أين التجليات التي اصطلح عليها الاتحادية من تخاطب العرب وتفاهم السلف والخلف بلغة اللسان العربي المبين؟ حتى يكون حمل النصوص والآثار على التجليات المصطلح عليها فيما بعد عهد التنزيل بدهور استعمالها لها في حقائقها؟! . ومن زعم ذلك فقد زاغ عن منهج الكتاب والسنة، وتنكب سبيل السلف الصالح ومسلك أئمة أصول الدين، ونابد لغة التخاطب وهجر طريقة النقد في الجرح والتعديل والتقويم والتعليل..." (١٠٤) .

قلت : إن حمل نصوص الكتاب والسنة الواردة في صفة كلام الله تعالى مع تلك الكثرة الكثيرة وتنوعها وتواترها وحملها على الكلام النفسي المبتدع ليس إلا استعمالاً في غير حقيقة الكلام، بل من فعل ذلك فقد زاغ عن منهج الكتاب والسنة، وتنكب سبيل السلف الصالح ونابد لغة التخاطب وهجر طريقة النقد في الجرح والتعديل والتقويم والتعليل . فدل على أن القول ببدعة الكلام النفسي تحريف لنصوص الكتاب والسنة، وتحريف للعقيدة

الإسلامية ، وتعطيل لصفة عظيمة من صفات الله تعالى .

الوجه الرابع :

كون القول ببدعة الكلام النفسي قولاً ثالثاً خارجاً عن القولين لأهل السنة وأهل البدعة .

لما نبغ ابن كلاب ابتدع بدعة أخرى وقولاً ثالثاً، خرق به إجماع الفريقين من أهل السنة وأهل البدع جميعاً، فرد عليه أهل السنة وأهل البدعة جميعاً، فكلهم رمّوه عن قوس واحدة، وبينوا زيفه وأنكروا عليه، لأن القول ببدعة الكلام النفسي كان قولاً ثالثاً بين القولين السابقين، وخارقاً لإجماع الفريقين، وكان أبعد عن العقل والنقل واللغة والعرف والإجماع، وفي ذلك يقول شيخ الإسلام ابن تيمية فاستمع إليه : " وفي الجملة حيث ذكر الله تعالى في كتابه عن أحد من الخلق من الأنبياء، أو أتباعهم أو مكذبيهم أنهم قالوا ويقولون، وذلك قولهم وأمثال ذلك، فإنما يعني به المعنى مع اللفظ . فهذا اللفظ وما تصرف منه من فعل ماض ومضارع وأمر ومصدر واسم فاعل عن لفظ القول والكلام ونحوهما، إنما يعرف في القرآن والسنة وسائر كلام العرب، إذا كان لفظاً ومعنى وكذلك أنواعه، كالتصديق والتكذيب والأمر والنهي وغير ذلك . وهما مما لا يمكن أحداً جحدده، فإنه أكثر من أن يحصى .

ولم يكن في مسمى " الكلام " نزاع بين الصحابة والتابعين لهم بإحسان وتابعيهم، لا من أهل السنة، ولا من أهل البدعة . بل أول من عُرف في الإسلام أنه جعل مسمى الكلام المعنى فقط، هو عبدالله بن سعيد بن كلاب وهو متأخر - في زمن محنة أحمد بن حنبل - وقد أنكر ذلك عليه علماء السنة، وعلماء البدعة، فيمتنع أن يكون الكلام الذي هو أظهر صفات بني آدم - كما قال تعالى : ﴿ فَوَرَبِّ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ لَحَقُّ مِثْلِ مَا أَنْتُمْ تَنْطِقُونَ ﴾

[الذاريات : ٢٣] ، ولفظه لا تحصى وجوهه كثرةً - لم يعرفه أحد من الصحابة والتابعين وتابعيهم^(١٠٥) ، حتى جاء من قال فيه قولاً لم يسبقه إليه أحد من المسلمين ، ولا غيرهم . . . " (١٠٦) .

وقال رحمه الله أيضاً : " . . . وحدث مع هذا من يقول بقول ابن كلاب : إن كلام الله معنى واحد قائم بنفس المتكلم . . . وجمهور الناس من أهل السنة والمعتزلة وغيرهم أنكروا ذلك وقالوا : إن فساد هذا معلوم بصريح العقل . . . " (١٠٧) .

وقال رحمه الله أيضاً : " . . . قول ابن كلاب : إن كلام الله معنى واحد قائم بنفس الله تعالى . . . وجمهور الناس من أهل السنة وأهل البدعة يقولون : إن فساد هذا القول معلوم بالاضطرار . . . " (١٠٨) .

وقد اعترف الشهرستاني أن الأشعري ابتدع قولاً ثالثاً بعد قول أهل السنة وأهل المعتزلة^(١٠٩) . والحاصل أن بدعة القول بالكلام النفسي مع كونها بدعة ضلالة قول ثالث بين قولين لأهل السنة وأهل البدع ، وكفى بذلك بطلاناً وضلالاً وبغياً وبهتاناً .

الوجه الخامس : دليل لغوي واصطلاحي وعرفي :

وهو أنه قد تقدم في نصوص أهل العلم أن الكلام في جميع لغات بني آدم عربهم وعجمهم ومصطلحهم وألستهم وعرفهم هو اللفظ الدال على معنى مفهوم إخباراً كان أو إنشاء ، وهذه حقيقة واقعة لا تحتل النقيض .

فهذا هو معنى الكلام في اللغة والاصطلاح ، وليس له معنى آخر في لغات الناس واصطلاحهم .

ولا شك أن الله تعالى قد خاطب عباده بما يعرفون ويفهمون . حيث قال

تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِنْ رَسُولٍ إِلَّا بِلِسَانٍ قَوْمِهِ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ﴾ [إبراهيم: ٤] . ومن مقتضى البيان أن يكون بلسان القوم ولو لم يكن بلسان القوم لما وُصف بالبيان ، ولما صحَّ التكليف ولا الأمر به ، ولكان قدحاً في حكمة رب العالمين بأن خاطب عباده بما لا يفهمونه ، وهذا من أبطل الباطل .

وإذا تقرر هذا فاعلم أيها المسلم أن حمل نصوص الشرع في كلام الله تعالى على الكلام النفسي ليس إلا إبطالاً للغات بني آدم واصطلاحهم وعُرفهم ، وتكليفاً لهم بأمر لا يفهمونه . فثبت أن القول ببدعة الكلام النفسي أمر لا تقره لغة ولا اصطلاح ولا عرف كما لا يقره عقل ولا نقل ولا إجماع بني آدم وكفى به إبطالاً وضلالاً .

قال الإمام السجزي الوائلي (٤٤٤هـ) : "اعلموا . . . ، أنه لم يكن خلاف بين الخلق على اختلاف نحلهم من أول الزمان إلى الوقت الذي ظهر فيه ابن كلاب . . . " (١١٠) .

وقال الإمام الموفق ابن قدامة المقدسي (٦٢٠هـ) : " . . . قلنا : خالفتم رب العالمين ، وخرقتم إجماع المسلمين ، وجئتم بما لم يأت به أحد من الملحدّين ، فإنه لا خلاف بين المسلمين أن كتاب الله هو القرآن ، العظيم ، المنزل على سيد المرسلين بلسان عربيٍّ مبين . . . ، ولا يخفى هذا إلا على من أعمى الله قلبه وأضله عن سبيله . . . " (١١١) .

وقال الإمام أبو الوفاء بن عقيل (٥١٣هـ) : " . . . وهذا باطل والجواب عنه من وجوه : أحدها من حيث اللغة والثاني تراجع على اللغة والثالث السنة والرابع أدلة العقول ، أما طريق اللغة فإنه إجماع أهل اللسان على أن الممسك عن الحروف والأصوات من غير آفة ، وإن كان يمكن أن يكون متفكراً ، فلو كان الكلام هو التصوير في النفس لكان التفكير أحق بتسمية

الكلام من الذي تظهر منه الحروف والأصوات . . . " (١١٢) .

وقال الموفق ابن قدامة المقدسي رحمه الله : " والأمة مجمعة على أن هذا هو القرآن الذي لا تصح الصلاة إلا به ، ولا تصح الخطبة إلا بآية منه ، ولا تقرؤه حائض ولا يقرؤه جنب ، ولما اختلف أهل الحق والمعتزلة ، فقال أهل الحق : " القرآن كلام الله غير مخلوق " وقالت المعتزلة : " هو مخلوق " ، لم يكن اختلافهم [إلا] في هذا الموجود دون ما في نفس الباري مما لا يدري ما هو ولا نعرفه . ولما أمر الله تعالى بترتيل القرآن بقوله سبحانه : ﴿ وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلاً ﴾ [المزمل : ٤] لم يفهم المسلمون إلا هذا الموجود ، ولما قال الوليد بن المغيرة : ﴿ إِنَّ هَذَا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ ﴾ [المدثر : ٢٥] إنما أشار إلى هذا النظم ، فتوعده الله عز وجل فقال : ﴿ سَأُصْلِيهِ سَقَرَ ﴾ [المدثر : ٢٦] . . . " (١١٣) .

وقال رحمه الله أيضاً : " . . . ، ولما اختلف أهل الحق والمعتزلة في القرآن : هل هو مخلوق أولاً؟ ما اختلفوا إلا في هذا الكتاب [أي القرآن العربي الملفوظ] واتفق الجميع على أنه قرآن ، واختلفوا في قدمه وخلقه ، ومن صورة الاختلاف الاتفاق على محله ، فحصل الإجماع في أمة محمد ﷺ على أن هذا الكتاب هو المنزل ، وثبت بالأدلة القاطعة . . . ، أن هذا قرآن ، فلم يلتفت إلى من خالف ذلك ، وإذا ثبت أنه قرآن فهو سور وآيات وكلمات وحروف بغير إشكال ، وإنكار ذلك جحد للعيان ونوع من السفسطة والهذيان ، ومن العجب أن الله تعالى سمى هذا الكتاب قرآناً وسماه النبي ﷺ قرآناً وسمته أمته قرآناً ، وسمته الجن قرآناً ، فقالوا : ﴿ إِنَّا سَمِعْنَا قُرْآنًا عَجَبًا ﴾ [الجن : ١] ، وسمته المعتزلة قرآناً ، فجاءت هذه الطائفة (١١٤) بمخالفة رب العالمين وخلقه أجمعين " (١١٥) .

الحاصل : أن القول ببدعة الكلام النفسي مع كونه مخالفاً للإجماع والمنقول

والمعقول مخالفٌ لجميع لغات بني آدم وعرفهم ومصطلحهم، وكفى بذلك إبطالاً وإضلالاً.

الوجه السادس :

أن القول ببدعة الكلام النفسي يستلزم إنكار القرآن الكريم من أصله، وكفر بالقرآن العظيم من أساسه.

قال الإمام ابن قدامة " اتفق الجميع على أنه قرآن . . . ، فجاءت هذه الطائفة بمخالفة رب العالمين وخلقهم أجمعين، . . . ، فجاءت بطامة، إذ من لوازمها كون القرآن مخلوقاً، فإن المعتزلة لم يعنوا بالقرآن المخلوق سوى هذا الكتاب . . . ، ثم إنهم مع جحدهم كون هذا قرآناً لا يتجاسرون على إظهار مقالتهم لسلطين المسلمين ولا لعامتهم، وإنما يظهرون لهم إنكار الحروف . . . ، وهذا إنما يلبس على عامي غمر ما له من فطنة، فيعلم يقيناً أن السورة آيات، والآيات كلمات، والكلمات حروف ولا شك في ذلك، ثم قد صرح النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه والتابعون ومن بعدهم بالحروف، وعدّ الناس حروف القرآن في الأمصار، ولم ينكر هذا منكر قبل هذه الطائفة^(١١٦)، وما أنكرت هذه الطائفة الحروف على الخصوص^(١١٧)، إنما أنكرت هذه الطائفة القرآن كله وجحدته . . . " (١١٨).

الوجه السابع :

أن القول بالكلام النفسي باطل عقلاً، فإنه يستلزم أن يكون التوراة عين القرآن، والقرآن عين الإنجيل، وهكذا العكس.

قال شيخ الإسلام: " . . . ، وجمهور الناس من أهل السنة والمعتزلة وغيرهم أنكروا ذلك وقالوا: إن فساد هذا معلوم بصريح العقل، فإن التوراة

إذا عَرَّبْتَ لم تكن القرآن، ولا معنى ﴿قل هو الله أحد﴾ هو معنى ﴿تبت يدا أبي لهب وتب﴾^(١١٩).

وقال رحمه الله : "وجمهور الناس من أهل السنة وأهل البدعة يقولون : إن فساد هذا القول معلوم بالاضطرار، وإن معاني "القرآن" ليست هي معاني "التوراة"، وليست معاني "التوراة" المعربة هي "القرآن" ولا "القرآن" إذا ترجم بالعبرية هو "التوراة"، ولا حقيقة "الأمر" هي حقيقة "الخبر... " (١٢٠).

أقول : لكن التالي باطل فالمقدم مثله، لأن التوراة غير القرآن، والإنجيل غير الزبور، وهذه الأمور من المحسوسات البدهيات التي لا يشك فيها أحد.

الوجه الثامن :

أن القول ببدعة الكلام النفسي يتضمن لوازم أخرى لا علاقة لواحد منها بالإسلام، بل كل واحد من هذه اللوازم يضاد الإسلام. ومن القواعد البدهية المقررة أن بطلان اللازم دليل على بطلان الملزوم.

قال شيخ الإسلام في إبطال قولهم : "الكلام النفسي معنى واحد، فقالوا (القول الذي لزمته تلك اللوازم التي عظم فيها نكير جمهور المسلمين بل جمهور العقلاء عليهم، وأنكر الناس عليهم أموراً منها :

(١) إثبات معنى واحد هو الأمر والنهي .

(٢) جعل القرآن العربي ليس من كلام الله الذي تكلم به .

(٣) وأن الكلام المنزل ليس هو كلام الله^(١٢١) .

(٤) وأن التوراة والإنجيل والقرآن إنما تختلف عباراتها، فإذا عبر عن

"التوراة" بالعربية كان^(١٢٢) هو "القرآن"^(١٢٣).

(٥) وأن الله لا يقدر أن يتكلم.

(٦) و [أنه] لا يتكلم بمشيئته واختياره.

(٧) وتكليمه لمن خلقه - كموسى وأدم - ليس إلا خلق إدراك ذلك المعنى بهم. فالتكليم هو خلق الإدراك فقط^(١٢٤).

(٨) ومنهم من يقول : بل كلام الله لا يسمع بحال^(١٢٥).

وجمهور العقلاء يقولون : إن فساد هذه الأقوال معلوم بالضرورة . . .). إلى غيرها من اللوازم الباطلة الكفرية التي لا يقرها عقل ولا نقل ولا إجماع^(١٢٦).

الوجه التاسع :

أن هؤلاء الكلاية وأتباعهم من الماتريديّة والأشعرية صرحوا بأن كلام الله تعالى ينافي الخرس والسكوت ، ومعلوم بدليل الحس والعقل والمشاهدة أن المنافي للخرس والسكوت هو الكلام اللفظي دون الكلام النفسي ، لأن الكلام النفسي لا ينافي الخرس والسكوت ، فإن الأخرس والساكت له كلام نفسي وإن لم يكن له كلام لفظي ، فإنه لا شك أن الأخرس عاجز عن الكلام اللفظي ولكنه يقدر في نفسه معنى لا يقدر على إظهاره على لسانه ، وأما الساكت وإن كان يستطيع أن يقدر في نفسه معنى ولكنه لم يظهره على لسانه بعد ، لأنه لو نطق به لا يقال له إنه ساكت ، بل يقال له إنه ناطق . فثبت أن الكلام النفسي لا ينافي الخرس والسكوت ، وإنما ينافيهما هو الكلام اللفظي .

قال شيخ الإسلام رحمه الله : " . . . ، وأيضاً فقولك : "لو لم يتصف بالكلام لا تصف بالخرس والسكوت" - إنما يعقل في الكلام بالحروف

والأصوات، فإن الحي إذا فقدتها^(١٢٧) لم يكن متكلماً، فإما أن يكون قادراً على الكلام ولم يتكلم وهو الساكت. وإما أن لا يكون قادراً عليه وهو الأخرس. وأما ما يدعونه من "الكلام النفسي" - فذلك لا يعقل لأن من خلا عنه كان ساكناً أو أخرس، . . . ، والسكوت والأخرس يتصور إذا تصور الكلام فالساكت هو الساكت عن الكلام، والأخرس هو العاجز عنه، أو الذي حصلت له آفة في محل النطق تمنعه عن الكلام، وحيث فلا يعرف الساكت والأخرس حتى يعرف الكلام ولا يعرف الكلام حتى يعرف الساكت والأخرس . . . »^(١٢٨).

الوجه العاشر :

أن قولهم ببدعة الكلام النفسي يلزمه أن يكون خبر الله تعالى عين الإنشاء وبالعكس، وأمره عين النهي وبالعكس، لأنهم قالوا: إن كلام الله شيء واحد لا أمر فيه ولا نهى ولا يتجزأ، وهذا قول في غاية السفاهة والحماقة، فإنه مكابرة للمشاهدة والعيان.

قال الإمام ابن أبي العز الحنفي رحمه الله (٧٩٢هـ) : " وهذا الكلام فاسد، فإن لازمه أن معنى قوله : ﴿ وَلَا تَقْرَبُوا الزَّيْفَ ﴾ [الإسراء : ٣٢] هو معنى قوله : ﴿ وَأَقِيمُوا الصَّلَاةَ ﴾^(١٢٩) ومعنى " آية الكرسي " ^(١٣٠) هو معنى " آية الدين " ^(١٣١) ، ومعنى " سورة الإخلاص " هو معنى ﴿ تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ ﴾^(١) ، وكلما تأمل الإنسان هذا القول تبين له فسادُه وعلم أنه مخالف لكلام السلف . . . »^(١٣٢).

الوجه الحادي عشر : برهان التناقض والاضطراب :

إننا نسأل من يقول بالكلام النفسي أن الله تعالى لما كلّم موسى تكليماً ، هل فهم موسى جميع كلام الله أم بعضه؟!؟! فإن قلتم فهم موسى عليه السلام أو سمع جميع كلام الله تعالى فقد ارتكبتم كفراً بواحاً آخر حيث ادعيتم أن موسى عليه السلام قد أحاط بجميع كلام الله تعالى وعلمه ، وقلتم بأن لكلامه تعالى انتهاء ، وأنتم لا تقول به أبد الأبدين ، وإن قلتم فهم موسى أو سمع بعض كلام الله تعالى فقد أبطلتم " الكلام النفسي " بأنفسكم من حيث لا تشعرون ، لأنكم قلتم أولاً إن كلام الله تعالى أمر نفسي لا يقبل التجزؤ والتبعض . وقد قبل الآن حيث صار بعضه مسموعاً لموسى ومفهوماً له وبعضه غير مسموع وغير مفهوم له ، وهذا هو التناقض الواضح .

قال الإمام أبو نصر السجزي : " خاطبني بعض الأشعرية يوماً في هذا الفصل وقال : (التجزؤ على القديم غير جائز) . فقلت له : أتقر بأن الله أسمع موسى كلامه على الحقيقة بلا ترجمان؟!... ، ما تقول في موسى عليه السلام حيث كلمه الله؟!؟! ، إن قلت : (إنه عليه السلام فهم كلام الله مطلقاً) اقتضى أن لا يكون لله كلام من الأزل إلى الأبد إلا وقد فهمه موسى وهذا يؤول إلى الكفر . وإذا لم يجر إطلاقه^(١٣٣) ، ألجئت إلى أن تقول : (أفهمه الله ما شاء من كلامه) دخلت في التبعض^(١٣٤) الذي هربت منه وكفرت من قال به . . . »^(١٣٥) .

وقال رحمه الله : " وفي ذلك اشتراك مع الله في علم الغيب وذلك كفر بالاتفاق ، وفيه أيضاً رد لقوله تعالى : ﴿ تَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِي وَلَا أَعْلَمُ مَا فِي نَفْسِكَ ﴾ [المائدة : ١١٦] ، فبين أن الرسل لا يعلمون بما في نفسه عز وجل . وإذا علمه موسى صار عالماً بما في نفس الله عز وجل وذلك غير جائز بالاتفاق »^(١٣٦) .

قلت : هذا هو بيان تناقض أصحاب الكلام النفسي ، فتارة يقولون :
"الكلام النفسي لا يتجزأ ولا يتبعّض" ، وتارة يقولون إن كلام الله بعضه
مسموع أو مفهوم ، وبعضه غير مسموع وغير مفهوم ، فاعترفوا بالتبعيض
والتجزؤ .

قال شيخ الإسلام في بيان تناقضهم : " . . . ، فقل لهم : عندكم هو [أي
الكلام] ^(١٣٧) معنى واحد لا يتبعّض ولا يتعدد ، فموسى [عليه الصلاة
والسلام] فهم المعنى كله أو بعضه ؟ إن قلت : كله ، فقد علم علم الله كله ،
وإن قلت : [فهم أو سمع] ^(١٣٨) بعضه فقد تبعّض ، وعندكم [أنه] ^(١٣٩) لا
يتبعّض " ^(١٤٠) .

الوجه الثاني عشر : برهان التحدي والإعجاز :

أن الأمة الإسلامية مجتمعة على أن القرآن الكريم معجز للجن والإنس
عن أن يأتوا بمثله . ومعلوم أن الله تعالى قد تحدى به الكفار بل الإنس والجن
جميعاً أن يأتوا بمثله بل بعشر سور مثله بل بسورة مثله ، بل بحديث مثله ،
فقال سبحانه وتعالى : ﴿ قُلْ لَّيْنِ اجْتَمَعَتِ الْإِنْسُ وَالْجِنُّ عَلَى أَنْ يَأْتُوا بِمِثْلِ هَذَا
الْقُرْآنِ لَا يَأْتُونَ بِمِثْلِهِ وَلَوْ كَانَ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ ظَهِيراً ﴾ [الإسراء : ٨٨] . وقال عز
وجل : ﴿ فَأْتُوا بِعَشْرِ سُوَرٍ مِثْلِهِ ﴾ [هود : ١٣] ، وقال جل وعلا : ﴿ فَأْتُوا بِسُورَةٍ
مِّنْ مِّثْلِهِ ﴾ [البقرة : ٢٣] ، وقال سبحانه : ﴿ فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّثْلِهِ ﴾ [يونس : ٣٨] ،
وقال عز من قائل : ﴿ فَلْيَأْتُوا بِحَدِيثٍ مِّثْلِهِ إِنْ كَانُوا صَادِقِينَ ﴾ [الطور : ٣٤] .

فثبت بهذه البراهين القاطعة أن القرآن الكريم معجز ومتحدى به ومعلوم أن
"الكلام النفسي" لا يتصور معارضته ولا يتحدى به ، فليس هذا الإعجاز
والتحدي إلا بالقرآن العربي الملفوظ المسموع ، فلو لم يكن هذا القرآن العربي
الملفوظ المسموع معجزاً أو متحدى به لم يعجز الخلق عن الإتيان بمثله ولم

يصح التحدي من الله تعالى به لكن التالي باطل فالمقدم مثله ، وهذا واضح لمن عرف قيمة كتاب الله تعالى قدر القرآن العظيم وعظمة كلام الله تعالى .

وللإمام ابن أبي العز الحنفي كلام قيم فارجع إليه^(١٤١) .

أقول : كون القرآن العربي الملفوظ المسموع معجزاً ومتحدىً به دون الكلام النفسي قد اعترف به كثير من كبار الماتريدية والأشعرية كرهاً دون طوع ، اضطراراً لمَّا رأوا مقالتهم في الكلام النفسي في غاية التناقض . فهذا عصام الدين (٩٥١هـ) قد اعترف بهذه الحقائق^(١٤٢) . وكذا الجرجاني (٨١٦هـ) أيضاً فقد قال بعد كلام طويل وتحقيق أن كلام الله تعالى هو الكلام اللفظي : " ولا شبهة في أنه أقرب إلى الأحكام الظاهرية المنسوبة إلى الملة " ^(١٤٣) .

واعترف بها قبله التفتازاني (٧٩٢هـ) ، واستشكل الكلام النفسي جداً ، وحاول الجواب عن هذه الإشكالات ، ولكنه لم يوفق للأجوبة الصحيحة^(١٤٤) .

واعترف بهذه الحقائق قبله القاضي العضد الإيجي (٧٥٦هـ) من الأشعرية ، حيث قال في الرد على الأشعرية القائلين بالكلام النفسي : " هذا الذي فهموه [أي فهمه الأشعرية] من كلام الشيخ الأشعري [أن المراد من الكلام هو الكلام النفسي دون اللفظي] باطل ، إذ له لوازم باطلة كثيرة " . ثم ذكر الإيجي عدة من اللوازم الباطلة التي يستلزمها القول ببدعة الكلام النفسي :

(١) منها عدم إكفار من أنكر كلامية ما بين دفتي المصحف ، مع أنه علم من الدين بالضرورة كونه كلام الله حقيقة .

(٢) عدم المعارضة والتحدي بكلام الله الحقيقي .

(٣) عدم كون المقروء والمحفوظ كلامه حقيقة .

ثم قال الإيجي : " إلى غير ذلك مما لا يخفى على المتفطن في الأحكام الدينية ، فوجب حمل كلام الشيخ [الأشعري] على أنه أراد به المعنى الثاني ، فيكون الكلام النفسي عنده أمراً شاملاً للفظ والمعنى جميعاً " .

ثم قال : " وهذا الذي ذكرناه وإن كان مخالفاً لما عليه متأخرو أصحابنا إلا أنه بعد التأمل تعرف حقيقته " (١٤٥) .

أقول : لقد نقل عصام الدين أحد كبار الماتريدية الحنفية كلام الإيجي والجرجاني ثم قال : " ولا شبهة في كونه أقرب . . . " (١٤٦) .

الحاصل : أن دليل التحدي وبرهان الإعجاز من أوضح براهين إبطال القول بالكلام النفسي .

الوجه الثالث عشر : برهان العقل والتصور :

وهو أن القول ببدعة الكلام النفسي أمر غير معقول وغير متصور ، حتى إن هذه الفرقة المعطلة أصحاب القول بالكلام النفسي لم يثبتوا الكلام النفسي ، بل لم يعقلوه ، بل لم يتصوروه ، والحكم على الشيء فرع عن تصوره ، لأن القول بهذه البدعة لا يقره عقل ولا يتصوره أحد من بني آدم تصوراً صحيحاً فضلاً عن هؤلاء المعطلة ، وبيان ذلك في كلام شيخ الإسلام حيث قال رحمه الله تعالى مبطلاً بدعة الكلام النفسي : " . . . لأن إثبات كلام يقوم بذات المتكلم بدون مشيئته وقدرته غير معقول ولا معلوم ، والحكم على الشيء فرع عن تصوره ، فيقال للمحتج بها [أي بالحجة العقلية] : لا أنت ولا أحد من العقلاء يتصور كلاماً يقوم بذات المتكلم بدون مشيئته وقدرته ، فكيف تثبت بالدليل المعقول شيئاً لا يعقل ؟!؟ ، . . . ، وأما ما يدعونه " الكلام النفسي " - فذاك لا يعقل . . . ، وأيضاً فالكلام القديم النفساني الذي أثبتموه - لم

تثبتوه ما هو؟ . بل ولا تصورتموه، وإثبات الشيء فرع تصوره، فمن لم يتصور ما يثبت - كيف يجوز أن يثبت، ولهذا كان أبو سعيد بن كلاب - رأس هذه الطائفة وإمامها في هذه المسألة - لا يذكر في بيانها شيئاً يعقل، بل يقول : هو معنى يناقض السكوت والخرس، والسكوت والخرس إنما يتصوران إذا تصور الكلام . . . ، فتبين أنهم لم يتصوروا ما قالوه ولم يثبتوه، بل هم [أي الماتريدية والأشعرية أتباع الكلاية] في "الكلام" يشبهون النصارى في "الكلمة"، وما قالوه في "الأقانيم" ^(١٤٧) و "التثليث" و "الاتحاد"، فإنهم يقولون ما لا يتصورونه ولا يبينونه . والرسول عليهم [الصلاة] والسلام إذا أخبروا بشيء ولم نتصوره وجب تصديقهم، وأما ما يثبت بالعقل فلا بد أن يتصوره العاقل به - وإلا كان قد تكلم بلا علم، فالنصارى تتكلم بلا علم، فكان كلامهم متناقضاً ولم يحصل لهم قول معقول ^(١٤٨) . كذلك من تكلم في كلام الله بلا علم كان كلامه متناقضاً، ولم يحصل له قول معقول، ولهذا كان مما يشنع على هؤلاء : أنهم احتجوا في أصل ^(١٤٩) دينهم وحقيقة الكلام - كلام الله وكلام جميع الخلق - بقول شاعر نصراني يقال له الأخطل .

قلت : لقد اعترف كثير من هؤلاء الكلاية من الماتريدية والأشعرية بعجزهم عن إثبات الكلام النفسي وحيرتهم أمام الإشكالات الواردة على الكلام النفسي، وإليك ذكر بعض الأمثلة :

الأول : أن الآمدي (٦٣١هـ) قال بأن الجواب عن الإشكالات الواردة على الكلام النفسي مشكل ^(١٥٠) .

الثاني : أن القاضي العضد الإيجي أحد كبار أساطين الأشعرية (٧٥٦هـ) قد فر من تلك الإشكالات الواردة على الكلام النفسي واضطر إلى الاعتراف بالكلام اللفظي، وحمل عليه كلام الأشعري كما سبق .

الثالث : أن التفتازاني (٧٩٢هـ) قد فر من تلك الإشكالات ولم يجد لها

جواباً شافياً، وهذا واضح لمن يطلع على كلامه في مظانه^(١٥١).

الرابع : أن العصام أحد كبار الماتريدية (٩٥١هـ) قد صرح بأن التفتازاني قد سلّم بالإشكال الوارد على الكلام النفسي^(١٥٢).

الخامس : أن الجرجاني (٨١٦هـ)، خاف من تلك الإشكالات الواردة على الكلام النفسي، واختار وتبع العضد الإيجي (٧٥٦هـ) في الاعتراف بالكلام اللفظي^(١٥٣).

السادس : أن العصام الماتريدي أيضاً نقل كلام القاضي العضد الإيجي الأشعري وتعليق الجرجاني عليه، ثم وافقهما في الجملة في الإقرار بالكلام اللفظي^(١٥٤).

السابع : أن المرعشي أحد كبار الماتريدية (١١٥٠هـ) اعترف بما اعترف به الإيجي الأشعري والجرجاني، وقال مقرأً ببعض الحق فاراً عن القول بالكلام النفسي مضطراً: "أقول: الحاصل أن كلامه تعالى هو العبارات المنظومة كما هو مذهب السلف"^(١٥٥).

الثامن : أن البهشتي أحد كبار الماتريدية (٩٧٩هـ) اعترف بالعجز عن إثبات الكلام النفسي، فقال: "إن ثبوت الكلام النفسي دونه خرب القتاد"^(١٥٦).

قلت : لا شك أن بدعة الكلام النفسي وتقسيم القرآن إلى القرآن اللفظي والنفسي دونهما خرب القتاد.

الوجه الرابع عشر : برهان نفي المجاز عندهم :

أن الماتريدية والأشعرية صرحوا أن الكلام مجاز في اللفظي حقيقي في النفسي، لأنهم قالوا : إنما يطلق على هذا القرآن العربي الملفوظ المسموع أنه كلام الله مجازاً لأنه دال على كلام الله النفسي، فأطلق على القرآن كلام الله تسمية للدال باسم المدلول، وهذا طريق المجاز.

فالكلام الحقيقي هو الكلام النفسي، وهذا القرآن العربي اللفظي عبارة عن ذلك الكلام النفسي. والكلام الحقيقي هو النفسي، وهذا القرآن العربي اللفظي المسموع كلام الله مجازاً^(١٥٧).

هذه طامة واحدة وتليها ثانية، وهي أنهم قالوا أيضاً: إن المجاز يجوز نفيه كقولك لرجل شجاع: هذا أسد، فيجوز لك أن تقول عندهم: هذا ليس بأسد^(١٥٨). هكذا قالوا، وهذه طامة ثانية.

أقول: إذا عرفت أخي المسلم أن هؤلاء الماتريديّة والأشعرية قائلون بهاتين الطامتين فاسمع إلى الطامة الثالثة، وهي أن القرآن الكريم العربي الملفوظ المسموع لمّا لم يكن كلام الله على الحقيقة، بل هو كلام الله مجازاً بدلالته على كلام الله الحقيقي - النفسي عندهم - ولكونه عبارة عن الكلام النفسي، والمجاز يجوز نفيه عند أهل الكلام - قال الشنقيطي رحمه الله في منع جواز المجاز: "وأوضح دليل على منعه في القرآن إجماع القائلين بالمجاز على أن كل مجاز يجوز نفيه، ويكون نفيه صادقاً في نفس الأمر، فتقول لمن قال: رأيت أسداً يرمي، ليس هو بأسد وإنما هو رجل شجاع، فيلزم على القول بأن في القرآن مجازاً أن في القرآن ما يجوز نفيه، ولا شك أنه لا يجوز نفي شيء من القرآن..."^(١٥٩).

الوجه الخامس عشر: برهان العدم:

وهو أن "الكلام النفسي" شيء معدوم محض لا وجود له ولا عبرة له، فلا تتعلق به الأحكام لانفياً ولا إثباتاً ولا إيجاباً ولا سلباً، لأنه إن قدر تصويره فهو من قبيل حديث النفس وخواطرها ووساوس القلب وهو اجس الصدور، فلا يحل به حرام ولا يحرم به حلال، ولا يدخل به المرء في الإسلام ولا يخرج به عن الإسلام إلى الكفر ولا يقع به الطلاق ولا العتاق، ولا تفسد به الصلاة بالاتفاق، كما صرح به أئمة الإسلام ولا سيما شيخ الإسلام رحمه الله^(١٦٠).

الوجه السادس عشر : برهان القوة والفعل :

أن " الكلام النفسي " إن قدر تصوره وتعقله فهو ليس إلا قدرة على الكلام، أو ليس إلا علماً بالكلام، أو ليس إلا إرادة الكلام، أو تصور الكلام، أو الكلام النفسي كلام بالقوة وليس كلاماً بالفعل، وقد صرح الإمام ولي الله الدهلوي بأن الكلام النفسي الذي يدين به أهل الكلام ليس إلا علماً بالكلام وإرادة للكلام لا علم الكلام^(١٦).

وإذا كان الأمر كذلك فإننا نسأل الماتريدية والأشعرية : هل الله تعالى عندكم متكلم بالفعل أم متكلم بالقوة فقط ؟ .

فإن قلتم : إن الله متكلم بالكلام بالفعل فقد عطلتم الكلام النفسي ، لأن الكلام النفسي ليس إلا كلاماً بالقوة ، بحيث لم يتحقق ولم يوجد ولم يخرج من العدم إلى الوجود بعد ، بخلاف الكلام اللفظي فإنه كلام بالفعل والواقع والوجود .

وإن قلتم : إن الله تعالى متكلم بالكلام ولكنه متكلم بالقوة لا بالفعل فقد أبطلتم صفة " كلام الله " ، ونفيتموها وعطلتموها وحرفتموها إلى صفة العلم ، أو إلى صفة القدرة ، أو إلى صفة الإرادة .

وهذا عين التعطيل ، فإن العقلاء قد أجمعوا على أن الكلام غير العلم وغير القدرة وغير الإرادة ، وأن القوة غير الفعل ، وأن الفعل غير القوة ، لأن الفعل تحقق الشيء في الواقع والوجود ، والقوة القدرة على الشيء بحيث لم يوجد بعد في الواقع ، كقولنا للإنسان الكاتب الذي يباشر الكتابة : زيد كاتب ، أي بالفعل .

وإذا كان قادراً على الكتابة ولكنه لم يكن مباشراً لها وقلنا له : إنه كاتب فإن معناه أنه كاتب بالقوة أي أنه قادر على الكتابة لا أنه مباشر لفعل الكتابة .

أقول : مسألة الفعل والقوة ، وأن الكلام اللفظي كلام بالفعل ، وأن الكلام النفسي كلام بالقوة لا بالفعل ، وأن الكلام النفسي علم بالكلام وإرادة له أو العزم على الكلام أو قصد الكلام أو تصور الكلام وتعقله في النفس أو تخيل الكلام .

قد اعترف بهذه الحقيقة كثير من الماتريدية أيضاً ، فقد صرح عصام الدين الإسفراييني فقال : " إن صفة الكلام إما راجعة إلى صفة العلم بهذه المعاني كما قيل ، أو إلى صفة قدرة التعبير عنها وإظهارها كما يمكن أن يقال " ، ثم قال : " إن صفة الكلام لا تنكشف بهذا البيان ، فينبغي أن يحال علمه إلى الله ويعترف بأن له كلاماً " (١٦٢) . بل قد صرح الجرجاني : بأن الكلام النفسي هو العزم والتخيل (١٦٣) .

وقد صرح الإمام ولي الله بأن الكلام النفسي الذي يدعيه هؤلاء المتكلمون إنما هو العلم والإرادة ، وليس بالكلام الحقيقي ، حيث قال رحمه الله تعالى : " ولا أدري ما الذي يسمونه كلاماً نفسياً بل ليس هو معنى محصلاً مغايراً للعلم والإرادة أصلاً " (١٦٤) .

قلت : هذه الاعترافات براهين قاطعة على إبطال الكلام النفسي ، وتثبت أن الكلام النفسي ليس بكلام إطلاقاً بل هو قدرة على الكلام أو إرادة للكلام وتخيل له وتصور له وليس بكلام حقيقي .

الوجه السابع عشر : برهان مضاهاة النصارى :

وهو أن ما يسميه هؤلاء الكلابية ومن اتبعهم من الماتريدية والأشعرية من الكلام النفسي قول فيه مضاهاة للنصارى .

قال الإمام ابن أبي العز الحنفي ، وغيره من أهل العلم ، واللفظ للأول : " وههنا معنى عجيب : وهو أن هذا القول له شبه قوي بقول النصارى

القائلين بـ "اللاهوت" و "الناسوت" ^(١٦٥) فإنهم يقولون : "كلام الله" هو المعنى القائم بذات الله الذي لا يمكن سماعه، وأما النظم مخلوق، فإفهام المعنى القديم بالنظم المخلوق يشبه امتزاج اللاهوت بالناسوت التي قالتها النصراني في عيسى عليه الصلاة والسلام، فانظر إلى هذا الشبه ما أعجبه! ^(١٦٦).

كان المريسي قد صنف كتاباً في نفس الصفات، وجعل يقرؤه بمكة في أواخر حياة ابن عيينة، فشاع بين علماء أهل مكة ذلك، وقالوا: صنف كتاباً في التعطيل، فسعوا في عقوبته وحبسه، وذلك قبل أن يتصل بالمأمون وقبل أن يجري من المحنة ما جرى، وقول ابن عيينة : "ما أشبه هذا الكلام بكلام النصراني" ^(١٦٧) هو كما قال، كما بسط في غير هذا الموضع، فإن عيسى مخلوق وهم يجعلونه الكلمة نفسها ولا يجعلونه المخلوق بالكلمة.

وأيضاً فائمة النصراني، كنشكين أحد فضلائهم الأكابر، يقولون: إن الله ظهر في صورة البشر مترائياً لنا كما ظهر كلامه لموسى في الشجرة فالصوت المسموع هو كلام الله وإن كان خلقه في غيره، وهذا المرئي هو الله وإن كان قد حل في غيره... ^(١٦٨).

الوجه الثامن عشر : برهان الوقوع في أقبح التشبيه :

وهو أن أصحاب الكلام النفسي من الكلاية والماتريدية والأشعرية إنمافروا من القول بالكلام اللفظي خوفاً من تشبيه الله تعالى بالإنسان، فقالوا ببدعة الكلام النفسي تحقيقاً لتنزيه الله تعالى، ولكنهم وقعوا في أشنع التشبيه وأبشعه، لأنهم لما نفوا عن الله تعالى كلاماً لفظياً، ووصفوه بأن له كلاماً نفسياً بلا حرف ولا صوت، قد شبهوا الله تعالى بالإنسان الساكت، بل بالإنسان الأخرس، بل شبهوا الله تعالى بالحيوانات العجماوات، التي لا تتكلم. بل أنزلوا الله تعالى منزلة أخس من عجل السامري الذي كان له

خوار^(١٦٩)، بل شبهوا الله تعالى بالجمادات التي لا تقدر على التكلم أصلاً ولا عندها صلاحية الكلام البتة هذا من ناحية، ومن ناحية أخرى قد شبهوا الله تعالى بإنسان له فؤاد ونفس ويزور الكلام في نفسه ويقدره ويدبره ويقبله بين خواطر نفسه، وهو اجس قلبه ووساوس صدره، ولهذا سموا كلام الله كلاماً نفسياً نسبة إلى النفس مع إنكارهم لصفة النفس لله تعالى.

فإن الماتريدية صرحوا بأن نسبة النفس إلى الله تعالى واردة في النفوس على سبيل المشاكلة^(١٧٠) لا على سبيل الثبوت له تعالى^(١٧١).

ولكن هذا الإنسان الذي يدبر الكلام النفسي في نفسه ويزوره ويقدره بهيئته قد يكون أفضل وخير وأكمل، لأنه قد يتكلم بحرف وصوت بذلك الكلام الذي هياؤه في نفسه، فيكون كلامه كلاماً نفسياً مسموعاً، أما الله تعالى فعندهم لا يتكلم إلا كلاماً نفسياً بدون حرف وصوت، ولا يسمعه أحد من خلقه، لا ملك مقرب ولا نبي مرسل!! هذا هو التنزيه الذي يدين به الكلائية والماتريدية والأشعرية، فقد قال الأشعري رحمه الله في الرد على الجهمية: "فلم يثبتوا له في وصفهم حقيقة ولا أوجبوا له بذكرهم إياه وحدانية، إذ كل كلامهم يؤدي إلى التعطيل، وجميع أوصافهم [له تعالى] تدل على النفس، يريدون بذلك التنزيه، ونفي التشبيه على زعمهم، فنعوذ بالله من تنزيهه يوجب النفي والتعطيل"^(١٧٢).

الوجه التاسع عشر: برهان المطالبة:

وهو أننا نطالب الماتريدية بتعيين أول شخص تكلم بهذا القرآن الكريم إذا لم يتكلم الله تعالى بهذا القرآن العربي الملفوظ المسموع فمن هو الذي تكلم بهذا القرآن العربي الملفوظ المسموع أولاً؟ ومن هو الذي أنشأ هذا القرآن العربي المؤلف من السور والآيات والجمل والكلمات والحروف؟ فإن قلتم إن أول من تكلم بهذا القرآن العربي الملفوظ المسموع رسول الله ﷺ أو جبريل أو

شخص آخر غير الله تعالى فقد ضارعتهم الكفار المشركين من أهل مكة ، وضاهيتهم المشركين الذين كانوا يقولون : ﴿ إِنَّ هَذَا إِلَّا قَوْلُ الْبَشَرِ ﴾ [المدثر : ٢٥] . وهذا في غاية الوضوح والتبيان ، وقد استدل كثير من أئمة السنة على هؤلاء بهذا الدليل القاطع ^(١٧٣) .

الوجه العشرون :

أن الله تعالى قد قال لنبيه زكريا عليه السلام : ﴿ آيَتِكَ إِلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْزًا ﴾ [آل عمران : ٤١] ، وقال : ﴿ آيَتِكَ إِلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَ لَيَالٍ سَوِيًّا ﴾ [مريم : ١٠] ، وقال جبرائيل لمريم عليهما السلام : ﴿ فَقُولِي إِنِّي نَذَرْتُ لِلرَّحْمَنِ صَوْمًا فَلَنْ أُكَلِّمَ الْيَوْمَ إِنْسِيًّا ﴾ [مريم : ٢٦] . فهل كان المراد نفي الكلام النفسي ؟ . مع أنهما كانا يستطيعان أن يتكلما بالكلام النفسي ، فدل ذلك على أن التكلم في شرع الله وعرف الناس هو الكلام اللفظي دون الكلام النفسي . ومعلوم أن الإشارة والرمز ليسا من الكلام في شيء . وقوله تعالى : ﴿ إِلَّا رَمْزًا ﴾ استثناء منقطع ، حتى باعترفهم ^(١٧٤) .

فدل على أن الكلام النفسي ليس من الكلام المعهود المعقول في شيء .

الوجه الحادي والعشرون :

أن الله تعالى قال : ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ لَوْلَا يُكَلِّمُنَا اللَّهُ أَوْ تَأْتِينَا آيَةٌ ﴾ [البقرة : ١١٨] فهل كان الكفار يطلبون أن يكلمهم الله تعالى بالكلام النفسي الذي ليس بحرف ولا صوت ولا يستطيع أحد أن يسمعه ؟ فإن كانوا يريدون هذا لم تكن لهم أي فائدة فيه ، وإن كانوا يريدون أن يكلمهم الله تعالى بالكلام اللفظي المسموع ثبت الكلام اللفظي لله تعالى ، لأن الله تعالى لم يشنع عليهم لأجل أن سؤالهم كان غير معقول أو أن الله تعالى لا يستطيع أن يتكلم بكلام لفظي مسموع ، بل شنع عليهم لأجل تعنتهم وعدم تصديقهم لرسول الله صلى الله عليه وسلم .

وهذه حقيقة اعترف بها أبو منصور الماتريدي (٣٣٣هـ) أيضاً^(١٧٥) حيث قال في تفسير هذه الآية: "ولا أنكر على الذين قالوا: ﴿لَوْلَا يُكَلِّمُنَا اللَّهُ﴾ إلا بوصف التكبر والجهل بمنزلة أنفسهم".

الوجه الثاني والعشرون: برهان التكليم وهو قوله تعالى:

﴿وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا﴾ [النساء: ١٦٤]:

أقول: ههنا تنبيهات تقوي هذا الاستدلال على صحة الكلام اللفظي وإبطال الكلام النفسي:

الأول: أن الإمام أبا حنيفة رحمه الله تعالى قد استدل بهذه الآية على أن موسى سمع كلام الله تعالى، حيث قال: "وسمع موسى كلام الله كما قال تعالى ﴿وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا﴾" ^(١٧٦).

لكن الماتريدي خالفوا إمامهم فقالوا: إن موسى عليه السلام لم يسمع كلام الله، وإنما سمع صوتاً مخلوقاً في الشجرة.

الثاني: أن الله تعالى أكد الفعل بالمصدر، فدل هذا دلالة قاطعة على أن الله تعالى كلم عبده ورسوله موسى عليه السلام كلاماً حقيقياً لفظياً مسموعاً، وهذا من أقوى الحجج على إبطال الكلام النفسي، فإن الكلام النفسي لا يسمع بحال، بل سماعه محال.

وإليك بعض كلام أهل العربية:

(١) قال الإمام أبو زكريا يحيى الفراء (٢٠٧هـ): "العرب تسمي ما يوصل إلى الإنسان كلاماً بأي طريق وصل، ولكن لا تحققه بالمصدر [أي المفعول المطلق] فإذا حقق بالمصدر لم يكن إلا حقيقة الكلام" ^(١٧٧).

(٢) وقال الإمام أبو العباس أحمد بن يحيى المعروف بشعلب الكوفي (٢٩١هـ): "لولا أن الله تعالى أكد الفعل بالمصدر لجاز أن يكون كما

يقول أحدنا للآخر : (قد كلمت لك فلانا) بمعنى : كتبت إليه رقعة أو بعثت إليه رسولاً، فلما قال : ﴿تَكْلِيماً﴾ لم يكن إلا كلاماً مسموعاً من الله ^(١٧٨).

قلت : الماتريديّة والأشعرية مخالفون للنقل والعقل واللغة في بدعتهم "الكلام النفسي" الذي ليس بحرف ولا صوت، ولا هو كلام مسموع، ولا هو كلام حقيقي.

(٣) وقال الإمام أبو العباس إبراهيم الزجاج (٣١١هـ) : "اعلم أن الله عز وجل كلم موسى بغير وحي ^(١٧٩) وأكد ذلك بقوله : ﴿تَكْلِيماً﴾ فهو كلام كما يعقل الكلام لا شك في ذلك" ^(١٨٠).

(٤) وقال الإمام أبو جعفر أحمد بن محمد النحاس (٣٣٨هـ) : "﴿تَكْلِيماً﴾ مصدر مؤكد، وأجمع النحويون على أنك إذا أكدت الفعل بالمصدر لم يكن مجازاً، وأنه لا يجوز في قول الشاعر : (امتلاً الحوض وقال قطني) ^(١٨١) أن يقول : (قولاً)، فكذا لما قال : ﴿تَكْلِيماً﴾ وجب أن يكون كلاماً على الحقيقة من الكلام الذي يعقل" ^(١٨٢).

(٥) وقال القرطبي (٦٧١هـ) : "﴿تَكْلِيماً﴾ مصدر معناه التأكيد، يدل على بطلان [قول] من يقول (خلق لنفسه كلاماً في الشجرة فسمعه موسى). بل هو الكلام الحقيقي الذي يكون به المتكلم متكلماً"، ثم ذكر كلام النحاس المتقدم آنفاً ^(١٨٣).

(٦) وقال القاري : "أتى بالمصدر المؤكد لدفع حمل الكلام على المجاز، أي كلمه الله تكليماً محققاً وأوقع له سماعاً مصداقاً، والمعنى أن موسى عليه السلام سمع كلام رب الأرباب بلا واسطة إلا أنه من وراء حجاب".

التنبيه الثالث : لقد بَوَّبَ الإمام البخاري (٢٥٦هـ) في كتاب التوحيد في صحيحه فقال : " باب قول الله ﴿ وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا ﴾ " ثم ذكر عدة أحاديث فيها تكليم الله تعالى لموسى كلاماً حقيقياً لفظياً مسموعاً^(١٨٤) .

وقد ذكر الإمام البيهقي عدة من الآيات التي كَلَّمَ الله بها موسى عليه السلام ثم قال : " فهذا كلام سمعه موسى عليه السلام بإسماع الحق إياه ، بلا ترجمان بينه وبينه^(١٨٥) .

وهكذا استدل جمع من الأئمة بهذه الآية على إثبات كلام الله اللفظي المسموع وأن موسى عليه السلام قد سمع كلام الله الحقيقي اللفظي ، فهو كليم الله حقيقة وحقاً لا مجازاً ولا باطلاً^(١٨٦) .

قلت : لقد تبين من هذه الآية وشرحها في هذه التنبيهات أن الله تعالى قد كلم موسى تكليماً ، بكلام حقيقي لفظي مسموع بصوت وحرف ، وأن هذه الآية نص في هذه المسألة لغةً وعرفاً ، مع تصريح أئمة الإسلام بذلك ، ودلت هذه الآية مع هذه التنبيهات أيضاً على إبطال " الكلام النفسي " الذي يدعيه الكلائية ومن تبعهم من الماتريدية والأشعرية .

ومع ذلك كله ترى هؤلاء يحرفون هذه الآية وما دلت عليه ، وقالوا : إن موسى لم يسمع كلام الله ، وإنما سمع صوتاً مخلوقاً في الشجرة^(١٨٧) .

وقال البياضي : " إن التكليم لا يتوقف على السماع من الله بالذات ، وليس في النظم الجليل [يعني في هذه الآية : ﴿ وَكَلَّمَ اللَّهُ مُوسَى تَكْلِيمًا ﴾] أنه سمع موسى عن الله ، بل إنه تعالى كلمه [إن موسى لم يسمع كلام الله على الحقيقة] ، . . . فهو بواسطة الحروف المخلوقة والأصوات المخلوقة في الشجرة في تكليم موسى^(١٨٨) .

وقريب منه كلام الكوثري (١٣٧٣هـ)^(١٨٩) .

وقريب منه أيضاً كلام أبو المنتهى (كان حياً ٩٣٩هـ) الذي قال : " إن الله تعالى قال لموسى في الأزل بلا صوت ولا حرف : يا موسى إنني أنا ربك فاخلع نعليك [طه] ^(١٩٠) .

الوجه الثالث والعشرون : برهان الصوت :

وهو أنه قد تضافرت النصوص على إثبات " الصوت لله تعالى " كما أن أئمة السنة أعلام الأمة قد صرحوا بأن الله تعالى يتكلم بصوت ، فدل ذلك على أن الله تعالى يتكلم بكلام لفظي مسموع بحروف وصوت ، وكما أن الله تعالى ليس كمثله شيء كذلك ليس صفاته كصفات أحد ، وليس كلامه مثل كلام خلقه ، وكذلك ليس صوته كصوت أحد ، وأن الله تعالى قد تكلم بكلامه وصوته هو ، وسمعه جبرائيل وبلغه جبرائيل إلى النبي صلى الله عليه وسلم ، ولكن لا بصوت الله بل بصوت جبرائيل نفسه ، وسمع النبي صلى الله عليه وسلم كلام الله من جبرائيل ، وبلغ النبي صلى الله عليه وسلم كلام الله تعالى أمته ، ولكن لا بصوت الله ولا بصوت جبرائيل بل بصوت النبي صلى الله عليه وسلم نفسه ، وسمع المسلمون كلام الله تعالى من النبي صلى الله عليه وسلم بصوت النبي صلى الله عليه وسلم لا بصوت الله ولا بصوت جبريل .

فالصوت صوت القاري والكلام كلام الباري . وإليك بعض النصوص في ذلك إتماماً للحجة وإيضاحاً للمحجة :

النص الأول : حديث جابر مرفوعاً : " يحشر الله العباد فيناديهم بصوت يسمعه من بعد كما يسمعه من قرب : أنا الملك أنا الديان " ^(١٩١) .

النص الثاني : أثر ابن مسعود : " إذا تكلم الله بالوحي سمع صوته أهل السماء . . . " ^(١٩٢) وله ألفاظ أخرى .

النص الثالث : حديث أبي سعيد مرفوعاً : " يقول الله تعالى : يا آدم . فيقول لبيك وسعديك . فينادي^(١٩٣) بصوت ... »^(١٩٤) .

النص الرابع : قول البخاري أمير المؤمنين وإمام أهل السنة في وقته ، قال رحمه الله محتجاً بحديث الصوت السابق : " إن الله عز وجل ينادي بصوت يسمعه من بعد كما يسمعه من قرب فليس هذا لغير الله جل ذكره " ، قال أبو عبد الله - يعني البخاري نفسه - وفي هذا دليل على أن صوت الله لا يشبه أصوات الخلق ، لأن صوته جل ذكره يُسمع عن بُعد كما يُسمع عن قرب ، وأن الملائكة يصعقون من صوته ، بخلاف صوت غيره .

انظر أيها المسلم إلى عقيدة الإمام البخاري ، فهذا الإمام يؤمن بالكلام اللفظي المسموع بحرف وصوت أم هو الكلام النفسي ؟ فهل تعتقد اعتقاد البخاري أم تعتقد اعتقاد أصحاب الكلام النفسي .

النص الخامس : قول الإمام أحمد رحمه الله إمام أهل السنة ، قال عبد الله ابن الإمام أحمد : سألت أبي عن قوم يقولون : " لما كلم الله عز وجل موسى لم يتكلم بصوت " ، فقال أبي : " بلى إن ربك عز وجل تكلم بصوت . هذه الأحاديث نروها كما جاءت ، وقال أبي : هؤلاء كفار يريدون أن يوهوا على الناس " ^(١٩٥) .

قلت : في هذا النص عبرة للفرقة الكلائية والماتريدية والأشعرية .

النص السادس : قال الإمام أبو بكر المروزي (٢٩٢هـ) : " سمعت أبا عبد الله - أحمد بن حنبل - وقيل له : " إن عبد الوهاب قد تكلم وقال : من زعم أن الله كلم موسى بلا صوت فهو جهمي عدو الله وعدو الإسلام " ^(١٩٦) . فتبسّم أبو عبد الله وقال : ما أحسن ما قال عافاه الله تعالى . "

النص السابع : قال عبدالله ابن الإمام أحمد : قلت لأبي : إن ههنا من يقول : "إن الله لا يتكلم بصوت" فقال : "يا بني هؤلاء جهمية زنادقة إنما يدورون على التعطيل" وذكر الآثار في خلاف قولهم^(١٩٧).

النص الثامن : قال الإمام أبو نصر الوائلي السجزي الحنفي (٤٤٤هـ) : "وليس في وجود الصوت من الله تشبيه بمن يوجد الصوت منه من الخلق ، كما لم يكن في إثبات الكلام له تشبيه بمن له الكلام من خلقه وقال : وأما نحن فنقول : "كلام الله حرف وصوت بحكم النص" وقال : "ليس ذلك عن جارحة وآلة ، وكلامنا حروف وأصوات لا يوجد منا إلا بآلة"^(١٩٨).

النص التاسع : قال شيخ الإسلام رحمه الله : "وهذا الصوت الذي تكلم الله به ليس هو الصوت المسموع عن العبد ، بل ذلك هو صوته كما هو معلوم لعامة الناس ، وقد نص على ذلك الأئمة ، أحمد وغيره ، فالكلام المسموع منه هو كلام الله لا كلام غيره"^(١٩٩).

قلت : فإذا تكلم العباد بالقرآن فأصواتهم مخلوقة ، والمقروء المتلو القرآن كلام الله على الحقيقة ، لا كلام العباد ، بل هو كلام رب العباد ، إذ ينسب كل كلام إلى قائله ، إن كان نثراً فيألى ناثره ، وإن كان شعراً فيألى شاعره ، حتى باعتراف الماتريديّة والأشعرية . أما القائل الثاني فهو مبلغ لقول القائل الأول ، ومؤدّ لكلام المتكلم الأول وناقل لقوله ، وهذه حقيقة اعترف بها هؤلاء المتكلمون القائلون بالكلام النفسي ، فالقرآن نفسه في الكتاب المكنون ، وهو نفسه في المصاحف ، وهو نفسه ما نقرؤه ، وهو نفسه حينما كان الله تكلم به ، فلا يخرج القرآن عن أن يكون كلام الله تعالى على الحقيقة وعن أنه غير مخلوق ، وليس هذا كذكر الأعيان باللسان كما زعمته الماتريديّة تمويهاً وتدليساً وتليساً^(٢٠٠).

فإن الفرق بين ذكر الأعيان باللسان وبين التكلم بالقرآن شاسع ، والبون واسع^(٢٠١) ، لأن من تلفظ بالنار لا يحترق لسانه ، لأنه لم يتناول جمرة النار بل ذكر اسم النار على لسانه ، بخلاف من تلفظ بكلام الله فإنه قد أدى كلام الله على الحقيقة ، وليس هذا قول بالحلول كما زعمته دعماء المتكلمين .

النص العاشر : قال شيخ الإسلام معلقاً على قول البخاري ومؤيداً له ، ومحققاً لصفة الصوت في كلام الله تعالى ، ومبيناً أن صوت الله تعالى لا يشبه أصوات خلقه كما أن كلام الله لا يشبه كلام خلقه : " وبين [البخاري] الفرق بين الصوت الذي ينادي الله به وبين الصوت الذي يسمع من العباد ، وأن الصوت الذي تكلم الله به ليس الصوت المسموع من القاريء ، وبين دلائل ذلك ، وأن أفعال العباد وأصواتهم مخلوقة ، والله تعالى بفعله وكلامه غير مخلوق " (٢٠٢) .

النص الحادي عشر : قال شيخ الإسلام أيضاً : " وقد علم أن عدم الفرق والمباينة بين الخالق وصفاته والمخلوق وصفاته خطأ وضلال ، لم يذهب إليه أحد من سلف الأمة وأئمتها ، بل هم متفقون على التمييز بين صوت الرب وصوت العبد ، ومتفقون على أن الله تكلم بالقرآن الذي أنزله على نبيه ﷺ حروفه ومعانيه ، وأنه ينادي عباده بصوته ، ومتفقون على أن الأصوات المسموعة من القراء أصوات العباد ، وعلى أنه ليس شيء من أصوات العباد ولا مداد المصاحب قديماً . . . " (٢٠٣) .

النص الثاني عشر : قال شيخ الإسلام أيضاً : " والله تكلم بالقرآن حروفه ومعانيه بصوت نفسه ، ونادى موسى بصوت نفسه ، كما ثبت بالكتاب والسنة وإجماع السلف .

وصوت العبد ليس هو صوت الرب ولا مثل صوته ، فإن الله ليس كمثله شيء لا في ذاته ولا في صفاته ولا في أفعاله ، وقد نص أئمة الإسلام أحمد ومن قبله من الأئمة ، على ما نطق به الكتاب والسنة : من أن الله ينادي بصوت ، وأن القرآن كلامه تكلم به بحرف وصوت ، ليس منه شيء كلاماً يقرأه لا جبريل ولا غيره ، وأن العباد يقرؤونه بأصوات أنفسهم وأفعالهم ، فالصوت المسموع من العبد صوت القارئ ، والقرآن كلام البارئ " (٢٠٤) .

الوجه الرابع والعشرون : برهان صفة تكلم الله تعالى بهذا القرآن :

وهو أنه قد تقدمت عدة نصوص صريحة لأئمة السنة على أن الله تعالى تكلم بهذا القرآن العربي اللفظي على الحقيقة بحروفه وصوته ، فالله تعالى متكلم بالقرآن تكلم بهذا القرآن ، لأن هذا القرآن كلامه الذي تكلم به على الحقيقة ، فثبت منه أن كلام الله تعالى كلام حقيقي لفظي مسموع ، وليس كلامه كلاماً نفسياً ، ويؤكد ذلك نص عائشة الصديقة بنت الصديق أم المؤمنين المبرأة من فوق سبع سماوات ، حيث قالت في قصة الإفك الطويلة ضمن حديث طويل معروف " . . . ، ولأنا أحقر في نفسي عن أن يتكلم بالقرآن من أمري " (٢٠٥) .

وفي لفظ : " . . . من أن يتكلم الله فيَّ بأمر " (٢٠٦) . وفي لفظ : " . . . من أن يتكلم فيَّ بأمر يتلى " (٢٠٧) .

قلت : هذه الآثار الصحيحة صريحة في أن الله تعالى قد تكلم بهذا القرآن العربي الملفوظ المسموع ، وأن كلام الله تعالى هو الكلام اللفظي المسموع .

الوجه الخامس والعشرون : برهان المناداة :

وهو أن نصوص الكتاب والسنة قد استفاضت ، بل تواترت على أن الله تعالى قد نادى بعض عباده من الملائكة والأنبياء ، وينادي عباده ، فقد قال سبحانه : ﴿ وَنَادَاهُمَا رَبُّهُمَا أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَنْ تِلْكَ الشَّجَرَةِ ﴾ [الأعراف : ٢٢] وقال تعالى : ﴿ وَنَادَيْنَاهُ أَنْ يَا إِبْرَاهِيمُ ﴿١٠٤﴾ قَدْ صَدَّقْتَ الرُّءْيَا ﴾ [الصافات : ١٠٤ ، ١٠٥] ، وقال جل وعلا : ﴿ وَإِذْ نَادَىٰ رَبُّكَ مُوسَىٰ ﴾ [الشعراء : ١٠] ، وقال سبحانه : ﴿ إِذْ نَادَيْنَا ﴾ [القصص : ٤٦] ، وقال تعالى : ﴿ وَنَادَيْنَاهُ مِنْ جَانِبِ الطُّورِ الْأَيْمَنِ ﴾ [مريم : ٥٢] ، وقال عز اسمه : ﴿ وَيَوْمَ يُنَادِيهِمْ ﴾ ^(٢٠٨) ، إلى غيرها من الآيات الكريمة التي تدل على أن الله تعالى نادى أو ينادي بعض عباده .

وكذلك استفاضت السنة عن النبي صلى الله عليه وسلم بأن الله تعالى نادى وينادي بعض عباده .

ولا شك أن النداء في اللغة والشرع والعرف كلام لفظي مسموع ليس إلا ، فدللت هذه النصوص على أن الله تعالى يتكلم بكلام لفظي مسموع بحرف وصوت . كما تدل على إبطال الكلام النفسي دلالة قاطعة . وقد استدلت أئمة السنة وأعلام هذه الأمة من السلف على إثبات الكلام اللفظي المسموع وسماعه بحرف وصوت بنصوص مناداة الله تعالى بعض عباده .

وإليك بعض نصوص الأئمة على ذلك :

(١) قال الإمام أبو نصر الوائلي السجزي الحنفي رحمه الله : " وقد بين في كتابه ما لا إشكال بعده في هذا الفصل لما قال : ﴿ وَإِذْ نَادَىٰ رَبُّكَ مُوسَىٰ ﴾ [الشعراء : ١٠] ، والعرب لا تعرف النداء إلا صوتاً ، وقد جاء عن موسى ذلك فإن أنكروا الظاهر كفروا .

وإن قالوا : "إن النداء غير صوت" خالفوا لغات العرب ، وإن قالوا :
"نادى الأمير" إذا أمر غيره بالنداء ، رفعوا فضيلة موسى عليه السلام
المختصة به من تكليم الله إياه بذاته من غير واسطة ولا
ترجمان . . . " (٢٠٩) .

(٢) وقال شيخ الإسلام رحمه الله تعالى - بعدما استدل بنصوص النداء على
صوت الله تعالى - : "النداء في لغة العرب هو صوت رفيع ، لا يطلق
النداء على ما ليس بصوت لا حقيقة ولا مجازاً" ، ثم ذكر سماع موسى
عليه السلام لكلام الله تعالى (٢١٠) .

قلت : لقد صدق شيخ الإسلام ، وقبله أبو نصر الوائلي الإمام ، فقد
صرح أئمة اللغة العربية بأن النداء صوت ، بل صوت رفيع ، بل صوت
أرفع (٢١١) .

الوجه السادس والعشرون : برهان "كُنْ" :

وهو أن الله تعالى قد قال : ﴿ إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَنْ نَقُولَ لَهُ كُنْ
فَيَكُونُ ﴾ [النحل : ٤٠] . والآيات كثيرة في هذا المعنى (٢١٢) . فهذه النصوص
تدل على أن الله تعالى يتكلم بكلمة ﴿ كُنْ ﴾ ويقولها ، ولكن هؤلاء
الماتريدية والأشعرية ينكرون ذلك ، وقالوا في معارضة الله تعالى : إن الله
تعالى لا يقول كلمة ﴿ كُنْ ﴾ ، فليس من الله أن يقول : ﴿ كُنْ ﴾ (٢١٣) ،
وقالوا : إنما المراد مجاز وتمثيل عن سرعة التكوين (٢١٤) .

قلت : هذه المقالة : - إنكار كلمة ﴿ كُنْ ﴾ - تعطيل بواح .

قال الإمام أبو نصر الوائلي الحنفي السجزي في الرد على الأشعرية
والماتريدية مبطلاً مقالتهم في بدعة الكلام النفسي : « فإن ارتكبوا العظمى
وقالوا : "كلام الله شيء واحد على أصلنا لا يتجزأ وليس لغة ، والله سبحانه

من الأزل إلى الأبد متكلم بكلام واحد لا أول له ولا آخر . . . " قيل لهم قد بينا مراراً كثيرة أن قولكم في هذا الباب فاسد، وأنه مخالف للعقلين والشرعيين جميعاً، وأن نص الكتاب والثابت عن الأثر قد نطقا بفساده، قال الله تعالى: ﴿ إِنَّمَا قَوْلُنَا لِشَيْءٍ إِذَا أَرَدْنَاهُ أَنْ نَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ ﴾ [النحل: ٤٠]. فبين الله أنه يقول للشيء: ﴿ كُنْ ﴾ إذا أراد كونه، فعلم بذلك أنه لم يقل للقيامة بعد "كوني" فبين الله جل جلاله أنه قال لآدم بعد خلقه من تراب: ﴿ كُنْ ﴾ وأنه إذا أراد شيئاً يقول له ﴿ كُنْ ﴾ فيكون" (٢١٥).

ولالإمام أبي الحسن الأشعري كلام متقن وحجج عقلية وبراهين سمعية قاطعة لدابر هؤلاء المنكرين لقول الله تعالى: ﴿ كُنْ ﴾ وفي ذلك كلام لأهل العلم أيضاً معروف (٢١٦).

الوجه السابع والعشرون: برهان النوغ والأفراد:

وهو أن نصوص الكتاب والسنة قد تواترت واستفاضت على أن الله تعالى لم يزل متكلماً ولا يزال متكلماً، ويكلم مَنْ شاء من عباده متى شاء، وله سبحانه وتعالى كلام قد تكلم به في الماضي، كما أن له سبحانه كلام لم يتكلم به بعد، وسيتكلم به متى شاء، فقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: "ما منكم أحد إلا سيكلمه ربه ليس بينه وبينه ترجمان . . ." (٢١٧).

وقال صلى الله عليه وسلم: (إذا كان يوم القيامة جعل الله السماوات على إصبع، والأرضين على إصبع، والماء والثرى على إصبع، والخلائق على إصبع، ثم يهزهن ثم يقول: "أنا الملك أنا الملك . . ." (٢١٨).

قال الإمام ابن القيم رحمه الله في تحقيق أن الله تعالى سيتكلم شيئاً فشيئاً، وقوله تعالى: ﴿ يَوْمَ نَقُولُ لِجَهَنَّمَ ﴾ [ق: ٣٠]: "ومحال أن يقول سبحانه لجهنم: هل امتلأت، وتقول: هل من مزيد، قبل خلقها ووجودها" (٢١٩).

أقول : دلت هذه النصوص على أن كلام الله تعالى ليس أمراً أزلياً فقط، بحيث لا يتجزأ ولا يتبعض كما يقوله أصحاب الكلام النفسي، فإن هذا محال، بل الحق أن كلامه تعالى منه كلام في جانب الماضي، ومنه ما سيكون كلاماً في جانب المستقبل، فالله تعالى سيتكلم بكلام لم يتكلم به بعد، فبطل الكلام النفسي الذي لم يتجزأ، وثبت الكلام اللفظي الذي له أبعاد وأجزاء، فالله تعالى لم يزل متكلماً ولا يزال متكلماً بمشيئة، فنوع الكلام قديم، وأفراده تتجدد بمشيئة الله وقدرته وإرادته سبحانه وتعالى. وهذه قاعدة في جميع الصفات الفعلية، حيث أن أنواعها قديمة وأفرادها متجددة^(٢٢٠).

وليس المراد من التجدد أنها مخلوقة معاذ الله من ذلك، لأن الله تعالى بصفاته وأفعاله وأسمائه خالق، وما سواه من مفعولاته كلها مخلوقة. ولا يلزم عن تجدد الأفراد حدوث الأنواع، فإن حكم الأفراد قد يختلف عن حكم الأنواع، ألا ترى أن نوع نعيم الجنة باقٍ لا ينفذ مع أن أحادها وأفرادها يأكلها أهل الجنة.

وهكذا أجزاء الطويل والعريض لا يلزم أن تكون طويلة وعريضة^(٢٢١).
الحاصل أن نصوص الشرع دالة على أن بعض كلام الله تعالى سيتكلم به سبحانه فيما لا يزال، فهذا رد على أهل الكلام النفسي.

الوجه الثامن والعشرون :

وهو أن الإمام ابن القيم قد صرح بأن نصوص كلام الله تعالى قد تنوعت وتواترت وتضافرت، ثم ساق عدة من النصوص، وكلها تدل على الكلام الحقيقي اللفظي المسموع، ثم قال : " إلى أضعاف أضعاف ذلك من نصوص الكتاب والسنة التي إن وقعت دفعت الرسالة بأجمعها، وإن كانت مجازاً كان الوحي كله مجازاً، وإن كانت من المتشابه كان الوحي كله من المتشابه، وإن

وجب أو ساغ تأويلها على خلاف ظاهرها ساغ تأويل جميع القرآن والسنة على خلاف ظاهرها، فإن مجيء هذه النصوص في الكتاب، وظهور معانيها وتعدد أنواعها واختلاف مراتبها أظهر من كل ظاهر، وأوضح من كل واضح فكم جمعه ما يبلغ التأويل والتحريف والحمل على المجاز؟.

هب أن ذلك يمكن في موضع أو اثنين أو ثلاثة أو عشرة؛ أفيسوغ حمل أكثر من ثلاثة وأربعة آلاف موضع كلها على المجاز؟ وتأويل الجميع بما يخالف الظاهر؟.

ولا تستبعد قولنا: "أكثر من ثلاثة آلاف" فكل آية وكل حديث إلهي وكل حديث فيه الإخبار عما قال الله تعالى أو يقول، وكل أثر فيه ذلك إذا استقرت زادت على هذا العدد، ويكفي أحاديث الشفاعة، وأحاديث الرؤية، وأحاديث الحساب، وأحاديث تكليم الله لملائكته وأنبيائه ورسله وأهل الجنة، وأحاديث تكليم الله لموسى، وأحاديث تكلمه عند نزوله سبحانه إلى السماء الدنيا كل ليلة، وأحاديث تكلمه بالوحي، وأحاديث تكليمه للشهداء، وأحاديث تكليم كافة عباده يوم القيامة بلا ترجمان وبلا واسطة، وأحاديث تكليمه للشفاعة يوم القيامة حين يأذن لهم في الشفاعة إلى غير ذلك، إذ كل هذا وأمثاله وأضعافه مجاز لا حقيقة له!! سبحانه هذا بهتان عظيم" (٢٢٢).

الوجه التاسع والعشرون :

إن قولهم بالكلام النفسي وأن القرآن الذي بين أيدينا ألفاظه وحروفه مخلوقة، خلقها الله في غيره، يلزم من هذه المقالة الشنيعة أن يجعل كل كلام خلقه الله في غيره هو كلام الله!! وهذا ما ألزم به عبد العزيز الكناني بشراً المريسي في حضرة المأمون (٢٢٣).

وبهذا تبين بطلان بدعة القول بالكلام النفسي ، وفيما ذكرت من الجواب
على هذا القول كفاية ، والله أعلم . وصلى الله وسلم على نبينا محمد وعلى
آله وصحبه أجمعين .

الهوامش

- (١) هذه خطبة الحاجة التي كان النبي ﷺ يستفتح بها خطبه كلها رواها الإمام أحمد في المسند (١٣٩٢/١ - ٣٩٣)، وأبو داود (٢١١٨)، والترمذي (١١٠٥)، وابن ماجه (١٨٩٢).
- (٢) أبو داود (٤٧٣٤) والترمذي (٢٩٢٥) وابن ماجه (٢٠١) عن جابر. صحيح أبي داود (٣٩٦٠).
- (٣) انظر شرح الطحاوية ص (١٣٧، ١٤٦). والمراد بالنوع: الكلام في ذاته.
- (٤) انظر المرجع المذكور ص (١٣٧). والمقصود بالأفراد: الكلمات.
- (٥) النونية ص (٣٣)، شرح الطحاوية ص (١٤٦).
- (٦) النونية ص (٢٨ - ٣٢)، شرح الطحاوية ص (١٣٧).
- (٧) النونية ص (٣٢ - ٤١)، شرح الطحاوية ص (١٣٧ - ١٤٦).
- (٨) النونية ص (٢٨).
- (٩) صحيح البخاري (٧/٤٣٤)، النونية ص (٣٢ - ٣٧)، مجموع الفتاوى ص (١٢/٥٨٤ - ٥٨٦).
- (١٠) النونية ص (٢٨، ٣٢، ٤١)، مجموع الفتاوى (١٢/٥٨٤ - ٥٨٦)، ومجموع الرسائل (٣/٣٨٨).
- (١١) انظر: «خلق الأفعال» ص (١٤٩)، و «درء التعارض» (٢/٣٨ - ٤٠)، و «مجموع الفتاوى» (١٢/٣ - ٥، ٣٦٥، ٥٨٤، ٥٨٦، ٦/٥٢٧ - ٥٢٨). و «كتاب السنة» لعبدالله بن أحمد (١/٢٨٠)، و «مسألة القرآن» لابن عقيل ص (٦١ - ٦٢، ١٠٩).
- (١٢) خلق الأفعال ص (١٤٩)، ودرء التعارض (٢/٣٩، ٤٠، ٩٣)، ومجموع الفتاوى (٥٢٧/٦ - ٥٢٨، ١٢/٣٠٤ - ٣٠٥، ٣٦٥، ٥٨٤، ٥٨٦). ومسألة القرآن لابن عقيل ص (١٠٩).
- (١٣) النونية ص (٢٨).
- (١٤) انظر: «البرهان في بيان القرآن» لابن قدامة ص (٢٥).
- (١٥) النونية ص (٣١)، و «شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة» للالكائي (٢/٢٢٧ - ٣١٢)، خلق أفعال العباد ص (١٣، ١٥، ١٧، ٢٦، ٢٨)، الرد على الجهمية للدارمي ص (١٧١ - ١٨٦)، السنة لعبدالله (١/١١٤ - ١٢٢)، مجموع الفتاوى (٥/١٩٧).
- وتلبس الجهمية (١/١٢٥ - ١٢٧)، فنون الأفتان لابن الجوزي ص (١٥٣ - ١٩٥)، مسائل أبي داود ص (٢٦٧)، العلو للذهبي ص (١١٢)، الأسماء والصفات للبيهقي ص (٢٥١)، تاريخ بغداد (١٣/٣٨٣)، أصول البزدوي ص (٣ - ٤)، شرح كشف الأسرار (٩/١).

(١٦) شرح الطحاوية ص (١٦٨).

(١٧) درء التعارض (١١٣/٢)، ومجموع الفتاوى (٣/ ١٤٤، ١٧٤ - ١٧٥)، المحنة لحنبل ص (٤٥)، الرد على الجهمية للدارمي ص (٨٨). وللإمام الضياء المقدسي (٦٤٣هـ) رحمه الله كتاب مستقل في هذه المسألة سماه: «اختصاص القرآن بعودة إلى الرحيم الرحمن» مطبوع.

(١٨) انظر: «القصيدة النونية» ص (٢٨).

(١٩) أمثال: الحلاج، وابن الفارض (٦٣٢هـ)، وابن عربي الملحد (٦٣٨هـ)، وابن سبعين (٦٦٩هـ). والقونوي (٦٧٣هـ)، والتلمساني (٦٩٠هـ)، وغيرهم من الصوفية الاتحادية والحلولية.

(٢٠) سبق تخريجه في التمهيد.

(٢١) ارجع إلى المراجع المذكورة في التمهيد.

(٢٢) النونية ص (٣٩ - ٤٠). ط: دار المعرفة، و ص ٥٥ ط: مكتبة ابن تيمية.

(٢٣) أمثال الفارابي (٣٣٩هـ) وابن سينا (٤٢٨هـ). ونصير الطوسي (٦٧٢هـ).

(٢٤) العقل الفعال عند هؤلاء الفلاسفة ولا سيما عند الفارابي: صورة مفارقة لم تكن في مادة ولا تكون أصلاً، وهو شيء ما وراء المادة مبرأ من الفناء، يدبر شؤون الكون ويسمونه «العقل العاشر»، وهو علة هذه الأكوان عندهم. انظر: «المعجم الفلسفي» ص (١٢٠)، و «النونية» ص (٣٨).

(٢٥) شرح العقيدة الطحاوية ص (١٣٦)، والنونية ص (٣٨).

(٢٦) انظر كافية ابن الحاجب وألفية ابن معطي وألفية ابن مالك.

(٢٧) النونية ص (٣٨ - ٣٩) ط: دار المعرفة، و ص ٥٤ ط: مكتبة ابن تيمية.

(٢٨) النونية ص (٤٤) ط: دار المعرفة، و ص (٦١ - ٦٢) ط: مكتبة ابن تيمية.

(٢٩) شرح الأصول الخمسة لعبد الجبار ص (٥٢٨)، والمغني له (٩٤/٧)، شرح الطحاوية ص (١٣٦)، ومجموع الفتاوى (١٢٣/١٢).

(٣٠) انظر النونية ص (٣١).

(٣١) راجع محنة الإمام أحمد وانظر «التنكيل» (٢٥٩/١).

(٣٢) مسلم (٢٧٠٨) عن خولة بنت حكيم.

(٣٣) انظر: «خلق أفعال العباد» ص (١٣، ١٥، ١٧، ٢٦، ٢٨)، و «الرد على الجهمية للدارمي» ص (١٧١ - ١٨٦)، و «السنة» لعبد الله (١/ ١١٤، ١٢٢، ١٠٢، ١٤١)، و «مجموع الفتاوى» (٥/ ١٩٧)، و «بيان تلبيس الجهمية» (١/ ١١٧)، و «شرح أصول اعتقاد أهل السنة» للالكائي (٢/ ٢٢٧ - ٣١٢)، و «مشايخ بلخ من الحنفية» (١/ ١٢٥ - ١٢٧)، و «فنون الأفنان» لابن الجوزي (١٥٣ - ١٩٥).

(٣٤) انظر: « شرح أصول اعتقاد أهل السنة » للالكائي (٢/ ٢٢٧ - ٣١٢). وراجع نص أبي حنيفة وأبي يوسف في تكفيرهم في كتاب «العلو» للذهبي ص (١١٢)، ومختصره ص (١١٥)، و«إكفار الملحدین» لأنور شاه الكشميري ص (٣٩ - ٤٠)، و«الأسماء والصفات» للبيهقي ص (٢٥١)، و«تاريخ بغداد» (١٣/ ٢٨٣)، وأصول البزدوي ص (٣ - ٤)، وشرحه «كشف الأسرار» للبخاري (١/ ٩).

(٣٥) مجموع الفتاوى (١٢/ ٤٦٦).

(٣٦) انظر: «التونية» ص (٣٧)، و«شرح اعتقاد أصول أهل السنة» للالكائي (٢/ ٢٢٧ - ٣١٢)، و«مشائخ بلغ من الحنفية» (١/ ١٢٥ - ١٢٧)، و«فنون الأفنان» لابن الجوزي ص (١٥٣ - ١٩٥).

(٣٧) انظر: «أصول الدين» للبزدوي الماتريدي ص (٦١).

(٣٨) تبصرة الأدلة لأبي المعين النسفي (١١٨/ ب).

(٣٩) التمهيد لأبي المعين النسفي (٦/ ب - ٧/ أ)، والعقائد النسفية مع شرحها للتفتازاني (٥٣ - ٥٨).

(٤٠) العمدة لحافظ الدين النسفي (٧/ أ - ب)، وانظر: شرح الإحياء للزبيدي (٢/ ٣٠ - ٣١، ١٤٤، ١٤٥)، وراجع: أصول الدين لأبي اليسر البزدوي (٥٩).

(٤١) انظر: كتاب التوحيد لأبي منصور الماتريدي ص (٥٩)، وشرح الفقه الأيسر لأبي الليث السمرقندي الماتريدي ص (٢٥)، المنسوب خطأ إلى أبي منصور الماتريدي، وأصول الدين لأبي اليسر البزدوي ص (٦١)، وتبصرة الأدلة لأبي المعين النسفي (١١٩/ أ - ب)، والبداية للصابوني ص (٦٣)، وتأنيب الكوثري ص (١٠، ٩٠، ٩٦، ١٠٧، ٣٠١، ٣٠٢).

(٤٢) انظر: «شرح المنار» لحافظ الدين النسفي (١/ ٢)، مع حاشية الملاحيون الهندي نور الأنوار.

(٤٣) شرح العقائد النسفية للتفتازاني.

(٤٤) تبصرة الأدلة (١١٩/ أ - ب)، لأبي المعين النسفي الحنفي.

(٤٥) شرح العقائد النسفية للتفتازاني ص (٥٧ - ٥٨).

(٤٦) انظر: شرح المواقف للجرجاني (٨/ ٩٥، ٩٩)، وشرح العقائد النسفية للتفتازاني ص (٥٨، ٦١)، وشرح الفقه الأكبر للقراري (٤٥، ٤٢)، وعقيدة الإسلام لأبي الخير البنغلاديشي ص (٣٧٤)، وتعليقات الكوثري على الأسماء والصفات للبيهقي ص (٢٥١)، والنبراس للفريهاري ص (٢٢٣ - ٢٣١)، وانظر كذلك كبرى اليقينيّات الكونية لمحمد سعيد رمضان البوطي ص (١٢٦).

(٤٧) انظر: شرح العقائد النسفية ص (٦١)، وحاشية عليه ص (٩٥)، والنبراس ص (٢٢٣ - ٢٣١)، وأصول الدين للبزدوي ص (٦١).

- (٤٨) انظر المراجع المذكورة.
- (٤٩) بحر الكلام لأبي المعين النسفي الماتريدي ص (٢٩).
- (٥٠) مقالات الكوثري ص (٢٧).
- (٥١) انظر رسالة التوحيد له ص (٦٦).
- (٥٢) انظر أصول الدين لأبي اليسر البزدوي الحنفي الماتريدي ص (٦٠-٦١).
- (٥٣) انظر: تأويلات الماتريدية رقم (٥١-٥٢) من سورة الشورى، وأصول الدين للبزدوي ص (٦١-٦٢)، وبصرة الأدلة (١١٨/ب)، البداية للصابوني ص (٦١)، العقائد النسفية مع شرحها للتفتازاني ص (٥٣)، إشارات المرام للبياضى ص (١٧٧-١٧٨).
- (٥٤) انظر المواقف للإيجي ص (٢٩٣-٢٩٦)، والجوهرة للقاني مع حاشيتها للبيجوري ص (٧١-٧٣)، ولباب العقول للملكاتي ص (٢٥٥، ٢٥٦، ٢٧٨)، والإرشاد للجويني ص (١٠٧-١٢٩)، وشرحه لأبي بكر بن ميمون ص (٢٤٠-٢٥١)، وقواعد العقائد للغزالي ص (١٨٢-١٨٥)، وأصول الدين للبغدادي ص (١٠٦-١٠٨)، والأربعين للرازي (١/٢٤٧-٢٥٢).
- (٥٥) ترجمته في «كشف الظنون» (١/٤٢٣-٤٢٤).
- أقول:** له كلام متين في أن هذا القرآن هو كلام الله على الحقيقة وأنه مسموع عن الله تعالى، وردّه على الأشعرية، وكان شديداً على أهل الكلام، انظر نصه في «درء التعارض» (٢/٩٦-٩٥).
- (٥٦) درء التعارض (٢/١٠٧)، عن كتاب التعليق في أصول الفقه للإسفرائيني.
- (٥٧) مقالات الإسلاميين ص (٥٨٤-٥٨٥).
- (٥٨) انظر رسالة السجزي إلى أهل زبيد ص (٨٢).
- (٥٩) النونية ص (٢٩).
- (٦٠) النونية ص (٣٠).
- (٦١) انظر: التوحيد للماتريدي ص (٥٩)، تبصرة الأدلة (١٢٦/أ)، البداية من الكفاية للصابوني ص (٦٥-٦٦)، شرح العقائد النسفية ص (٦٠-٦١)، المسيرة على المسامرة ص (٨٠-٨١)، إشارات المرام ص (٥٥، ١٨١-١٨٢).
- (٦٢) مجرد مقالات الأشعري لابن فورك ص (٥٩-٦٠)، الإرشاد للجويني ص (١٢٩-١٣٠)، قواعد العقائد للغزالي ص (٥٩)، وإحياء علوم الدين له (١/٩١)، ومناظرات الرازي ص (٢٨٠)، الروضة البهية ص (٤٣-٤٦).
- (٦٣) المحصل ص (٢٦٨).
- (٦٤) انظر الإرشاد ص (١٢٩).
- (٦٥) انظر: كتاب التوحيد للماتريدي ص (٥٩).

- (٦٦) انظر: تحفة المريد شرح جوهره التوحيد ص (٧٢).
- (٦٧) انظر: الرد على الجهمية والزنادقة للإمام أحمد ص (١٠٤-١٠٥)، وراجع التفصيل في التنكيل للعلامة العلمي (١/١٦٣)، فستجد تحقيقاً بالقبول: وهو أن المعتزلة لم يكونوا في الأصل جهمية ولا معطلة ولا قائلين بخلق القرآن، وإنما نشأ فيهم أناس دعوا إلى مقالة جهم فصاروا جهمية.
- (٦٨) انظر الانتقاء ص (١٦٦)، وكتاب السنة لعبدالله بن أحمد (١/١٨٢)، وتاريخ بغداد (٦/٢٤٥)، ولسان الميزان (١/٣٩٩).
- (٦٩) انظر الحموية ص (٢٦-٢٧)، وضمن مجموع الفتاوى (٥/٢٣، ٢٤)، وضمن الرسائل الكبرى (١/٤٣٦-٤٣٧).
- (٧٠) انظر الجواهر المضية (١/٤٤٧)، والفوائد البهية ص (٥٤)، وراجع مناقب أبي حنيفة للموفق المكي ص (٣٩١).
- (٧١) تاريخ بغداد (٤/١٤١)، ووفيات الأعيان (١/٨١)، والفرقان بين الحق والباطل ص (١١٩)، وضمن مجموع الفتاوى (١٣/١٨٤)، وسير أعلام النبلاء (١١/١٦٩)، والبدية والنهاية (١٠/٣١٩)، ولسان الميزان (١/١٧١)، وشذرات الذهب (٢/٩٣)، والجواهر المضية (١/١٣٤، ٤/٤٥٣).
- (٧٢) راجع الكامل لابن عدي (٦/٢٢٩٣)، تاريخ بغداد (٥/٣٥١)، والأسماء والصفات ص (٢٧٣)، وكتاب الضعفاء (٣/٧٠)، والمنتظم (٥/٥٨)، وكلاهما لابن الجوزي، والأنساب للسمعاني (٣/١٣٩)، وتهذيب الكمال (٣/١٢١٠)، المخطوط، المغني (٢/٥٩١)، والميزان (٣/٥٧٧)، والبدية والنهاية (١١/٤٠)، والكشف الحثيث ص (٣٧٩)، وتهذيب التهذيب (٩/٢٢٠-٢٢١)، والفوائد البهية ص (١٧١).
- (٧٣) راجع المنار مع شرحه «كشف الأسرار ونور الأنوار» (٢/١٩٤-١٩٥).
- (٧٤) انظر: التوضيح على التنقيح كلاهما لصدر الشريعة، مع شرحه «التلويح على التوضيح» للفتنازاني (٢/٤٤).
- (٧٥) انظر: رسالة السجري إلى أهل زبيد ص (٨١)، وانظر ما سيأتي.
- (٧٦) مجموع الفتاوى (٦/٢٩٦-٢٩٧، ٧/١٣٢، ١٣٤، ١٤٠، ١٢/١٧٨، ٥٨٣)، ومختصر الصواعق (٢/٤٢٦، ٤٥٠)، وإجماع الجيوش ص (٢٨٢)، وشرح الطحاوية ص (١٩٩-٢٠٠)، ودرء التعارض (١/٢٦٧، ٢/٨٧-٨٣، ١١٠، ١١٥، ٦/٢٦٨)، وكتاب الإيمان ص (١٢٦، ١٢٨، ١٣١-١٣٤)، واعترف بهذه الحقيقة كثير من الأشعرية والماتريدية، انظر: «الملل والنحل» للشهرستاني ص (٣٠٩-٣١٣)، و«نهاية الإقدام» ص (٣٠٩-٣١٣)، و«طبقات الشافعية» للسبكي ص (٣٠٠)، وشرح الإحياء للزبيدي (٢/٦).

(٧٧) كلمة «الأوائل» قد يقصد بها الفلاسفة اليونانية، فعلوم الأوائل قد يقصد بها الفلسفة اليونانية، انظر: توضيح المقاصد (١٩٤/٢)، وقد يقصد بـ «الأوائل» أوائل الحوادث، وعلم الحوادث على هذا: ما يبحث فيه عن بيان أوائل الحوادث والأمور، وفيه كتب كثيرة منها كتاب «الأوائل» لأبي هلال العسكري، مطبوع. راجع كشف الظنون (١٩٩/١)، والظاهر أن المراد من «الأوائل» ههنا الفلاسفة ومن تبعهم من الذين تكلموا في العقلية. والمراد أن الفلاسفة والعقلانيين أيضاً يعتقدون أن الكلام ما يكون بحرف وصوت.

(٧٨) أي معنى غير مستقل، ليصح مقابله بالاسم والفعل، كما هو في علم النحو، راجع «شرح ابن عقيل» (٢٠/١).

(٧٩) أي أنها ظنية فلا تفيد علماً يقينياً، بل لاتفيد إلا علماً ظنياً، والظن لا يفيد في باب الاعتقادات، كما هو أصل من أصول أهل الكلام من الجهمية الأولى والمعتزلة، ثم الماتريدية والأشعرية. انظر: شرح أصول الخمسة ص (٢٢٦-٢٣٠)، ومتشابه القرآن ص (٧٣، ٧٥، ٢٣٠، ٢٣١، ٣٥١)، و «شرح الإحياء» للزبيدي (١٠٥-١٠٦)، و «أساس التقديس» (٧٢-٧٣).

(٨٠) الجزء عند المتكلمين: ما يتركب الشيء منه ومن غيره، انظر تعريفات الجرجاني ص (١٠٢)، والبعض عندهم: اسم لجزء مركب، تركب الكل منه.

أقول: المستفاد من كلام عامة الناس: أن الجزء والبعض اسمان لمسمى واحد، وهما شيء واحد فلا فرق، ولكن المفهوم في تعريف الجرجاني هذا: أن «البعض» أخص من «الجزء» فإن «البعض» اسم لـ «جزء مركب» و «الجزء» أعم، سواء كان مركباً أم لا. والله أعلم.

(٨١) هذه من أعظم شبهات المعطلة قديماً وحديثاً. انظر: «الرد على الجهمية» للإمام أحمد ص (١٣٠-١٣١).

(٨٢) أقول: هذه مقدمة في غاية الفساد، لأن الذات قد توصف بالحركة والسكون دون الصفة.

(٨٣) أي التزموا بما التزمت به المعتزلة ووافقوهم عليها، فوقعوا في أشد منها.

(٨٤) أي خالفوا الحس، لأن الحس دال على أن الكلام إنما هو الحرف والفظ.

(٨٥) وهو إجماع جميع بني آدم قبل ابن كلاب على أن الكلام حرف وصوت.

(٨٦) أي الكلابية.

(٨٧) سبق الكلام عنه.

(٨٨) أقول: هذا المفهوم للكلام الحقيقي قد تقرر عند الماتريدية والأشعرية جميعاً كما سبق، لكنه خلاف الواقع، فإن الكلام بهذا المعنى لا يقره عقل ولا نقل ولا إجماع ولا عرف ولا لغة، ولم يعرفه أحد من بني آدم قبل ابن كلاب.

(٨٩) في درء التعارض (٨٥/٢) (المانعة فيه من الكلام) أي الآفات الموجودة في المتكلم المانعة له من الكلام.

(٩٠) أي استنتجوا نتيجة فاسدة باطلة، وهي أن إثبات الكلام الحقيقي الذي فيه الحرف والصوت لله تشبيه وتجسيم.

(٩١) أي إثبات الكلام العربي أو العبري أو السرياني أو الكلام بلغة أخرى لله تعالى تشبيه، ولو قالوا: إن الله: ليس كمثله شيء كذلك صفات الله ليس لها مثل وصوت الله ليس له مثل، وأثبتوا الصفات لله تعالى بما فيها الكلام بحرف وصوت بدون تخيل وتشبيه مثل إثبات الذات بدون تمثيل لنجوا من التعطيل.

(٩٢) في درء التعارض (٨٥/٢) «على الفؤاد» وهكذا في عامة المراجع.

(٩٣) انظر التمهيد للباقلاني ص (٢٥١)، والإنصاف له ص (١١٠).

(٩٤) في رسالة السجزي ص (٨٤) «مما يدخل» والذي أثبتته فهو في درء التعارض (٨٦/٢) نقلاً عن رسالة السجزي، وهذا أفضل من الفعل المضارع، وأوفق للسياق ودلالة الكلام.

(٩٥) فإنها مكابرة للحس والواقع، وهذه بعينها مقالة السفسطائية اللاأدرية.

(٩٦) رسالة السجزي إلى أهل زبيد ص (٨٠ - ٨٤).

(٩٧) انظر: «المنتظم» (٣٣٢/٦)، ط الهند حيدر آباد الدكن، تصوير: دار صادر، بيروت، و (١٤/٢٩)، ط دار الكتب العلمية، بيروت، تحقيق: محمد عبد القادر عطا.

(٩٨) انظر: «نهاية الإقدام» ص (٣١٣).

(٩٩) كما تقدم في كلام الإمام الوائلي السجزي، والشهرستاني في «نهاية الإقدام» ص (٣١٣).

(١٠٠) البخاري (٣٠١/٥) ومسلم (١٣٤٣/٣).

(١٠١) مسلم (١٣٤٣/٣) ورواه البخاري تعليقاً (٣١٧/١٣).

(١٠٢) أخرجه أبو داود في سننه «كتاب: السنة، باب: في لزوم السنة»، وابن ماجه في سننه، وصححه الألباني كما في صحيح سنن ابن ماجه.

(١٠٣) انظر: «نهاية الإقدام» ص (٣١٣).

(١٠٤) تعليقات الكوثري على الأسماء والصفات للبيهقي ص (٤٥٥).

(١٠٥) هذه الجملة في محل نصب خبر «يكون» في قوله: «فيمتنع أن يكون الكلام الذي...».

(١٠٦) كتاب الإيمان ص (١٢٨)، وضمن مجموع الفتاوى (١٣٤/٧).

(١٠٧) درء التعارض (٢٦٧/١)، و (١١٠/٢)، ومجموع الفتاوى (٦٤/٦).

(١٠٨) درء التعارض (١١٠/٢).

(١٠٩) نهاية الإقدام ص (٣١٣).

(١١٠) رسالة السجزي ص (٨٠-٨٢)، وقد ذكرنا نصه بطوله مع تعليقات عليه.

(١١١) حكاية المناظرة في القرآن مع بعض أهل البدعة ص (٢٢).

- (١١٢) مسألة القرآن ص (٧٠).
- (١١٣) المناظرة في القرآن مع بعض أهل البدعة ص (٣٠ - ٣١).
- (١١٤) يعني الكلامية، وأتباعهم من الماتريدية والأشعرية.
- (١١٥) البرهان في بيان القرآن ص (٥١).
- (١١٦) يعني ابن كلاب ومن تبعه من الماتريدية والأشعرية، لأنهم قالوا: هذا القرآن العربي ليس كلام الله، بل هو دال على كلام الله، وكلام الله شيء نفسي لا حرف فيه ولا صوت، وأما هذا القرآن العربي فهو مخلوق.
- (١١٧) يعني أن الكلامية والماتريدية والأشعرية لم يذكروا الحروف فقط وحسب، بل جاوز إنكارهم إلى القرآن الكريم نفسه، فأنكروا القرآن حيث اعتقدوا أنه ليس كلام الله وإنما هو كلام نفسه.
- (١١٨) البرهان في بيان القرآن ، ٥٢
- (١١٩) درء التعارض (١/ ٢٦٧، ٢/ ١١٠)، ومجموع الفتاوى (٦/ ٦٤).
- (١٢٠) درء التعارض (٢/ ١١٠).
- (١٢١) لأن كلام الله عندهم هو الكلام النفسي دون اللفظي، كما سبق ذكره.
- (١٢٢) هكذا في الأصل، ولعل الأولى أن يقال: «كانت هي القرآن»، ليرجع الضمير إلى التوراة.
- والمعنى: أن التوراة لو ترجمت إلى العربية كانت هي القرآن عندهم.
- (١٢٣) وهكذا صريح قولهم كما سبق.
- (١٢٤) وهذا أوفق بمذهب الماتريدية والأشعرية معهم في الحقيقة كما سبق.
- (١٢٥) وهذا صريح مذهب الماتريدية والأشعرية وموافقيهم من الحنفية على ذلك كما سبق.
- (١٢٦) درء التعارض (٢/ ١١٤ - ١١٥، ٦/ ٢٨٨).
- (١٢٧) أي الحروف والأصوات.
- (١٢٨) مجموع الفتاوى (٦/ ٢٩٥ - ٢٩٦).
- (١٢٩) سورة البقرة الآية (٤٣)، والآية (١١٠)، سورة النساء الآية (٧٧)، سورة يونس الآية (٨٧)، سورة النور الآية (٥٦)، سورة الروم الآية (٣١)، سورة المزمل الآية (٢٠).
- (١٣٠) سورة البقرة الآية (٢٥٥).
- (١٣١) سورة البقرة الآية ٢٨٢، وتسمى آية المداينة.
- (١٣٢) شرح الطحاوية ص (١٩١ - ١٩٢)، وراجع درء التعارض (١/ ٢٦٧ و ٢/ ١٠٠ و ٤/ ١١٩ - ١٢٤).
- (١٣٣) أي: إذ لم يجز عندك إطلاق القول بأن موسى عليه السلام سمع أو فهم جميع كلام الله،

بل تقول: إن موسى عليه السلام سمع أوفهم بعض كلام الله تعالى.
(١٣٤) دخلت في التبعض، وأقررت أن كلام الله تعالى ذو أبعاد وأجزاء وهدمت أصلك
وناقضت قولك عن أن الكلام النفسي لا يتجزأ ولا يتبعض وهذا هو التناقض.
(١٣٥) انظر درء التعارض (٢/ ٩٠-٩٢)، نقلاً عن كتاب الإبانة للإمام أبي نصر السجزي
الوائلي.
(١٣٦) الرد على من أنكر الحرف والصوت ص (١١٤) للإمام أبي نصر السجزي في رسالته إلى
أهل زبيد.

(١٣٧) زيادات للإيضاح.
(١٣٨) زيادات للإيضاح.
(١٣٩) زيادات للإيضاح.
(١٤٠) مجموع الفتاوى (٦/ ٢٢٣).
(١٤١) الرد على الجهمية ص (٩٩)، وشرح الطحاوية ص (٢٠٠).
(١٤٢) انظر: حاشية العصام على شرح العقائد النسفية ص (١٨٨).
(١٤٣) شرح المواقف (٨/ ١٠٣-١٠٤).
(١٤٤) شرح العقائد النسفية ص (٦١) مع الحاشية رقم (٧).
(١٤٥) كلام الإيجي هذا قد ساقه الجرجاني في شرح المواقف (٨/ ١٠٣-١٠٤)، وقال
الجرجاني: (واعلم أن للمصنف [الإيجي] مقالة مفردة في تحقيق كلام الله) ثم ذكر نفس
كلامه.

ولكني لم أجد هذه المقالة هل طبعت أم هي من جملة المخطوطات؟! ونقل نفس هذا الكلام
أيضاً العصام في حاشيته ص (١٨٨)، والفربهاري في النبراس ص (٢٣٣).
(١٤٦) حاشية العصام على شرح العقائد النسفية ص (١٨٨-١٨٩).
(١٤٧) جمع الأقنوم بضم الهمزة وسكون القاف وضم النون، كلمة رومية معناها: «الأصل»
انظر: القاموس ص (١٤٨٧)، والأقانيم من مصطلحات النصارى وهي ثلاثة، وعليها بنوا
عقيدتهم في التثليث - أي جعل الإله ثلاثة أشياء -، هي عند عامة النصارى «الإله الأب»
و «الإله الابن» و «روح القدس». راجع الجواب الصحيح (٢/ ٢٤٥)، وهداية الحيارى
(١/ ١١٦)، انظر: مقارنة الأديان للدكتور شلبي (٢/ ١٣٩)، وراجع الملل والنحل
للشهرستاني (١/ ٢٤).

(١٤٨) انظر - لبيان اضطراب النصارى وتناقضهم وحيرتهم وعدم استطاعتهم في التعبير عن
خرافتهم في الأقانيم - الفصل لابن حزم - (١/ ٤٠-٤٣)، والملل والنحل للشهرستاني
(١/ ٢٢٠-٢٢٨)، والجواب الصحيح (٢/ ٢٤٥-٢٥٩، ٣/ ٥٣-١٠٣)، وهداية الحيارى
ص (١٦٤-١٦٦)، ومقارنة الأديان (٢/ ١٣٨-١٤٦) لشلبي.

(١٤٩) لأن مسألة كلام الله تعالى أصل لدين الإسلام، فإن الأمر والنهي والتشريع موقوف على كلام الله تعالى.

(١٥٠) كما في درة التعارض (١١٩/٤)، ومجموع الفتاوى (٢١/٦)، والآمدني قال ذلك في كتابه المشهور «أبكار الأفكار» (١/٩٨/١) المخطوط بدار الكتب المصرية برقم (١٦٠٣)، علم الكلام كما في تعليق الدكتور محمد رشاد سالم على درة التعارض (١/١٦٤).

(١٥١) انظر: «شرح العقائد النفسية» ص (٦١).

(١٥٢) انظر: «حاشية العصام على شرح العقائد النفسية» ص (١٨٨).

(١٥٣) انظر شرح المواقف (٨/١٠٣-١٠٤).

(١٥٤) انظر: «حاشية العصام على شرح العقائد النفسية» ص (١٨٨-١٨٩).

(١٥٥) نشر الطوالع ص (٢٥٦-٢٥٨).

(١٥٦) انظر حاشيته على حاشية الخيالي على شرح العقائد النفسية ص (٦٧).

(١٥٧) راجع تأويلات الماتريدية في تفسير الآيتين (٥١-٥٢) من سورة الشورى وأصول الدين للبزدوي ص (٦٠-٦١)، تبصرة الأدلة (١١٨/ب)، والبداية للصابوني الحنفي ص (٦١)، والعقائد النفسية مع شرحها للفتازاني ص (٥٣)، التلويح علي التوضيح (١/٢٨)، وإشارات المرام ص (١٧٧-١٧٨).

(١٥٨) انظر: شرح العقائد النفسية ص (٦١)، والنبراس ص (٢٣٠)، وحاشية العصام على شرح العقائد النفسية ص (١٨٨).

(١٥٩) منع جواز المجاز للشنقيطي ص (٨).

(١٦٠) انظر كتاب الإيمان ص (١٣١-١٣٢)، ومجموع الفتاوى (٧/١٣٧-١٣٨)، وشرح الطحاوية ص (١٩٩).

(١٦١) انظر البدور البازغة ص (١٠٨).

(١٦٢) حاشية العصام على شرح العقائد النفسية للفتازاني ص (١٧٧).

(١٦٣) انظر شرح المواقف (٨/٩٧).

(١٦٤) البدور البازغة ص (١٤٤) تحقيق: د صفرو (١٠٨) ط الهند.

(١٦٥) اللاهوت والناسوت من مصطلحات النصراني في صميم عقيدتهم الفاسدة، فاللاهوت عندهم: هو الله، والناسوت: المسيح، أو اللاهوت: الألوهة، وعلم العقائد المسيحية، والناسوت الطبيعة البشرية. انظر الجواب الصحيح (٣/٨٢-٨٥)، والرائد ص (١٢٧٠)، (١٤٦٧)، والموسوعة العربية الميسرة (٢/١٥٤٦).

(١٦٦) شرح الطحاوية ص (١٩٨-١٩٩)، وراجع مجموع الفتاوى (٦/١٩٦)، وانظر أيضاً كلاماً للإمام الأشعري في الإنابة [ص (٦٨) تحقيق: فقيه ص (٥٥)، تحقيق: الأناؤوط دار البيان ص (٨٩) طبعة الجامعة الإسلامية].

- (١٦٧) قلت: كلام الإمام ابن عيينة هذا رواه أبو نعيم في الحلية (٢٩٦/٧).
- (١٦٨) انظر: شرح العقيدة الأصفهانية ص (٦٥).
- (١٦٩) انظر قصة عجل السامري في سورة الأعراف الآية (١٤٨)، وراجع الإبانة للأشعري [ص ٥٦-٥٧، ٧١-٧٢]، تحقيق: الأرناؤوط، وص (٩٠-٩١) طبعة الجامعة الإسلامية.
- (١٧٠) المشاكلة ذكر الشيء بلفظ غيره لوقوعه في صحبته، ومنه قول الشاعر:
قالوا اقترح شيئاً نجد لك طبخة فقلت اطبخوا لي جبةً وقميصاً
- انظر: الإرشادات والتنبيهات للجرجاني ص (٢٦٧)، والإيضاح ص (٤٩٣-٤٩٤).
- (١٧١) انظر: إرشاد العقل السليم لأبي السعود (١٠١/٣).
- (١٧٢) انظر: الإبانة (١١٧/٢) تحقيق: فوفيه.
- (١٧٣) راجع الرد على الجهمية للدارمي [ص (١٥٩)، تحقيق: البدر]، والإبانة للأشعري [٢/ ٦٩-٧٠]، تحقيق: فوفيه، و(ص ٥٦) تحقيق: الأرناؤوط. طبعة دار البيان، و(ص ٩٠) طبعة الجامعة الإسلامية. [والأسماء والصفات ص (١٩٢)، والاعتقاد ص (٩٦) كلاهما للبيهقي، والعقيدة الطحاوية مع شرحها لابن أبي العز الحنفي ص (٢٠١)، وفتح الباري لابن حجر (٤٥٤/١٣).
- (١٧٤) انظر المدارك (٢١٤/١)، وإرشاد العقل (٣٤/٢).
- (١٧٥) كتاب التوحيد للماتريدي ص (٥٧)، وهكذا اعترف بهذه الحقيقة في كتابه التأويلات (٢٦٩/١)، ت. د. إبراهيم عوضين، (٢٣٤/١) ت. د. محمد الرحمن، وانظر المدارك للنسفي أيضاً (٨٣/١).
- (١٧٦) الفقه الأكبر مع شرح القاري ص (٤٦).
- (١٧٧) معالم التنزيل للبغوي (٥٠٠/١) عن الفراء، ولم أجده في معاني القرآن للفراء، فربما في كتاب آخر له؟
- (١٧٨) زاد المسير لابن الجوزي (٢٥٦/٢)، عن ثعلب ولم أهد إلى مظهره.
- (١٧٩) أي مباشرة دون واسطة الملك.
- (١٨٠) معاني القرآن للزجاج (١٣٣/٢).
- (١٨١) لم أعرف هذا الشاعر، ولم أعر على نسبته لأحد، وانظر هذا البيت في مجالس ثعلب (١٨٩/١)، والكامل (٦١٥/٢)، وبعده: «سلا رويداً قد ملأت بطني».
- (١٨٢) إعراب القرآن (٥٠٧/١).
- (١٨٣) الجامع لأحكام القرآن (١٨/٦).
- (١٨٤) منح الأزر شرح الفقه الأكبر ص (٤٦).
- (١٨٥) الأسماء والصفات ص (١٩٠).

- (١٨٦) راجع الرد على الجهمية للإمام أحمد ص (١٣٠)، والرد على الجهمية للدارمي ص (١٥٥)، ت: بدر البدر، والإبانة للأشعري ص (٧٦-٦٨) ت: د. فوقية. والاعتقاد للبيهقي ص (٩٥-٩٦)، وفتح الباري (١٣/٤٥٥).
- (١٨٧) كتاب التوحيد للماتريدي ص (٥٩)، وشرح تأويلات الماتريدي للسمرقندي في تفسير سورة الشورى رقم الآية (٥١)، وإشارات المرام للبيضاوي ص (١٨١-١٨٢)، وكبرى اليقينيّات ص (١٣٢).
- (١٨٨) إشارات المرام ص (١٨١-١٨٢).
- (١٨٩) انظر تعليقات الكوثري على الأسماء والصفات ص (١٩٣-١٩٤).
- (١٩٠) شرح الفقه الأكبر له ص (١١).
- (١٩١) رواه أحمد (٣/٤٩٥)، والبخاري في الأدب المفرد: باب المعانقة ص (٣٢٦) وفي خلق أفعال العباد ص (١٤٩)، والحاكم (٢/٤٣٧-٤٣٨)، وغيرهم. قلت: وهذا الحديث على أقل أحواله حسن.
- (١٩٢) رواه عبدالله بن أحمد في السنة (١/٢٨١)، والخلال في السنة كما في درء التعارض (٢/٣٨).
- (١٩٣) بصيغة المعلوم، بكسر الدال مضبوطاً للأكثر، راجع الفتح (١٣/٤٦١).
- (١٩٤) رواه البخاري في كتاب التوحيد (٦/٢٧٢٠)، وفي خلق أفعال العباد ص (١٥٠)، وقد طعن فيه بعض المؤلفين ولكن الحافظ وقف لهم بالمرصاد، فرد كيدهم في نحورهم، انظر الفتح (١٣/٤٦٠).
- (١٩٥) رواه في كتاب السنة له (١/٢٨٠)، ورواه الخلال عن الإمام أحمد في كتابه السنة، كما في درء التعارض (٢/٣٨).
- (١٩٦) رواه الخلال في كتاب السنة له كما في درء التعارض (٢/٣٨-٣٩).
- (١٩٧) عزاه شيخ الإسلام إلى كتاب السنة لعبدالله بن أحمد، انظر: مجموع الفتاوى (١٢/٣٦٨)، ولم أجده في كتاب السنة المطبوع بطبعته.
- (١٩٨) درء التعارض (٢/٩٣) عن كتاب الإبانة للسجزي.
- (١٩٩) درء التعارض (٢/٤٠).
- (٢٠٠) انظر: التمهيد للنسفي (٧/أ)، والعهدة للنسفي (٧/ب)، وشرح العقائد النسفية ص (٥٩)، والنبراس ص (٢٢٦)، وتعليقات الكوثري على الأسماء والصفات ص (٢٥٥).
- (٢٠١) راجع التحقيق في مجموع الفتاوى (١٢/٣٨٢-٣٩١، ٥٦٤-٥٦٦) وتأويل مختلف الحديث ص (٢٠٢).
- (٢٠٢) مجموع الفتاوى (١٢/٣٦٥).
- (٢٠٣) مجموع الفتاوى (١٢/٥٨٥-٥٨٦).

- (٢٠٤) مجموع الفتاوى (١٢/٤٨٤-٥٨٥).
- (٢٠٥) رواه البخاري في الشهادات: باب تعديل النساء، الفتح (٣٢١/٥).
- (٢٠٦) رواه البخاري في المغازي: باب حديث الإفك (١٥٢١/٤).
- (٢٠٧) رواه البخاري في تفسير سورة النور: باب لولا إذ سمعتموه (٧٧٧/٤).
- (٢٠٨) سورة القصص الآيات (٦٢، ٧٤، ٦٥)، وسورة فصلت الآية (٧).
- (٢٠٩) درء التعارض (٩٣/٢) عن كتاب الإبانة للسجزي.
- (٢١٠) مجموع الفتاوى (٦/٥٣٠-٥٣١).
- (٢١١) انظر جمهرة اللغة (٣/٢٤٥)، والصحاح (٦/٢٥٥)، والمفردات ص (٤٨٦)، واللسان (١٥/٢١٥)، والقاموس ص (١٧٢٤)، وتاج العروس (٢٠/٢٣٣).
- (٢١٢) انظر سورة البقرة الآية (١١٧)، وسورة آل عمران الآية (٤٧)، وسورة الأنعام الآية (٧٣)، وسورة مريم الآية (٣٥)، وسورة يس الآية (٨٢)، وسورة غافر الآية (٦٨).
- (٢١٣) انظر: تأويلات الماتريدية (١/٢٦٨).
- (٢١٤) انظر: بحر العلوم للسمرقندي (١/٤٦٥)، والمدارك (١/٨٣)، وإرشاد العقل السليم (١/٥١)، وكشف الأسرار (١/١١٢-١١٣).
- (٢١٥) درء التعارض (٢/٨٧-٨٨) عن كتاب الإمام للوائلى السجزي.
- (٢١٦) فراجع وانظر: الإبانة ص (٦٥-٦٦)، ت: د. فوقية، وص (٥٢-٥٣)، ت: الأرناؤوط ط دار البيان، و ص (٨٦-٨٨)، ط الجامعة.
- (٢١٧) رواه البخاري في كتاب التوحيد (باب: كلام الرب يوم القيامة مع الأنبياء وغيرهم) عن عدي بن حاتم رضي الله عنه.
- (٢١٨) رواه البخاري في كتاب التوحيد (باب: كلام الرب يوم القيامة) عن ابن مسعود.
- (٢١٩) مختصر الصواعق ص (٤٣٠).
- (٢٢٠) راجع درء التعارض (٥/١١٥-١٢١)، وجامع الرسائل (٢/١٠-١٦)، وضمن مجموع الفتاوى (٦/٢٢٢-٢٢٧).
- (٢٢١) راجع منهاج السنة (١/١١٨-١١٩) ط القديمة، و (١/٤٢٦-٤٣٢) الطبعة المحققة، ودرء التعارض (٨/١٥٨-١٥٩).
- (٢٢٢) مختصر الصواعق (٢/٢٩٧-٢٩٨)، ط القديمة وص (٤٣٠-٤٣١) الطبعة الجديدة ودار الندوة، و ص (٤٧٩-٤٨٠)، تحقيق سيد بن إبراهيم وص (٤١٥)، ط دار الكتاب.
- (٢٢٣) راجع شرح الطحاوية ص (١٧٢) ط: المكتب الإسلامي.

المراجع:

- (١) الأربعين للرازي. ط: دائرة المعارف العثمانية.
- (٢) الأسماء والصفات للبيهقي. ط: إحياء التراث العربي.
- (٣) أصول الدين للبرزدوي. ط: دار إحياء الكتب العربية.
- (٤) أصول الدين للبغدادي. ط: دار الكتب العلمية.
- (٥) إحياء علوم الدين للغزالي. ط: دار الندوة.
- (٦) إرشاد العقل السليم إلى مزايا القرآن الكريم. ط: دار الكتب العربي.
- (٧) الإرشاد للجويني. ط: مكتبة الخانجي.
- (٨) إشارات المرام للبياضى. ط: مكتبة البابي الحلبي.
- (٩) إعراب القرآن للنحاس. ط: عالم الكتب.
- (١٠) إكفار الملحدين لأنور شاه الكشميري. ط: أكورة ختك بيشاور، باكستان.
- (١١) اجتماع الجيوش الإسلامية لابن القيم. ط: مطابع الفرزدق.
- (١٢) الانتقاء لابن عبد البر. ط: دار الكتب العلمية.
- (١٣) بحر الكلام لأبي المعين النسفي. ط: قديمة (سنة ١٣٤٠هـ)، مصر.
- (١٤) البداية للصابوني. ط: دار المعارف، مصر.
- (١٥) تاج العروس للزبيدي. ط: مكتبة الحياة، بيروت.
- (١٦) تاريخ بغداد للخطيب البغدادي. ط: دار الكتاب العربي.
- (١٧) تبصرة الأدلة لأبي المعين. مخطوط: المكتبة الأزهرية، القاهرة.
- (١٨) تعليقات الكوثري على الأسماء والصفات للبيهقي. ط: دار الكتب العلمية.
- (١٩) تلبيس الجهمية لشيخ الإسلام. ط: مكتبة الحكومة السعودية، مكة.
- (٢٠) التمهيد لقواعد التوحيد للمعين النسفي. مخطوط: دار المكتبة العربية.
- (٢١) التمهيد للباقلاني. ط: المكتبة الشرقية، بيروت.
- (٢٢) التنكيل لعبد الرحمن المعلمي. ط: (١٤٠٤هـ)، المطبعة العربية، لاهور.
- (٢٣) التوضيح على التنقيح لصدر الشريعة حافظ الدين النسفي. ط: دار الكتب العلمية.
- (٢٤) جمهرة اللغة. ط: دار صادر، بيروت.
- (٢٥) الجواهر المعنية في طبقات الحنفية للقرشي. ط: عيسى البابي الحلبي.
- (٢٦) الجوهره للقاني، مع حاشيتها للبيجوري. ط: دار الكتب الحديثة.
- (٢٧) حاشية العصام على شرح العقائد النسفية. ط: كردستان.
- (٢٨) خلق أفعال العباد للبخاري. ط: المكتبة السلفية، الكويت.

- (٢٩) درء تعارض العقل والنقل لابن تيمية. ط: جامعة الإمام.
- (٣٠) الرد على الجهمية للددارمي. ط: المكتب الإسلامي، و ط: الدار السلفية، الكويت.
- (٣١) الرد على الجهمية والزنادقة للإمام أحمد. ط: دار اللواء.
- (٣٢) رسالة السجزي لأهل زيد. ط: الجامعة الإسلامية.
- (٣٣) الروضة البهية في ما بين الأشاعرة والماتريدية لابن عنبه. ط: دائرة المعارف العثمانية.
- (٣٤) زاد المسير لابن الجوزي. ط: المكتب الإسلامي.
- (٣٥) سير أعلام النبلاء للذهبي. ط: مؤسسة الرسالة.
- (٣٦) شذرات الذهب لابن العماد الحنبلي. ط: دار المسيرة.
- (٣٧) شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة للالكائي. ط: مكتبة طيبة، الرياض.
- (٣٨) شرح الأصول الخمسة لعبد الجبار الهمداني. ط: مكتبة وهبه.
- (٣٩) شرح الإرشاد لأبي بكر بن ميمون. ط: دار التضامن، مصر.
- (٤٠) شرح العقيدة الطحاوية لابن أبي العز. ط: دار البيان.
- (٤١) شرح الفقه الأبسط للسامرقندي. ط: (١٤٠٠هـ) دائرة المعارف العثمانية، حيدر آباد، الدكن، الهند.
- (٤٢) شرح الفقه الأكبر للقاري. ط: دار الكتب العلمية، بيروت.
- (٤٣) شرح المواقف للجرجاني. ط: مطبعة السعادة، مصر.
- (٤٤) العقائد النسفية لعمر النسفي، مع شرحها للتفتازاني. ط: كتيبة، إمدادية الهند.
- (٤٥) عقيدة الإسلام لأبي الخير. ط: المؤسسة الإسلامية.
- (٤٦) العلو للذهبي. ط: المكتبة السلفية، المدينة.
- (٤٧) العمدة في الاعتقاد لحافظ الدين النسفي. مخطوط: دار الكتب المصرية رقم (٧١١).
- (٤٨) فنون الأفتان لابن الجوزي. ط: دار البشائر.
- (٤٩) الفوائد البهية في تراجم الحنفية للكنوي. ط: دار المعرفة.
- (٥٠) فيض الباري على صحيح البخاري للكشميري. ط: دار المعرفة.
- (٥١) قواعد العقائد للغزالي. ط: عالم الكتب.
- (٥٢) كبرى اليقينات. ط: الثامنة، سوريا.
- (٥٣) كتاب التوحيد لأبي منصور الماتريدي. ط: المكتبة الإسلامية.
- (٥٤) كتاب السنة لعبد الله بن أحمد. ط: مكتبة ابن القيم.
- (٥٥) كشف الأسرار بشرح أصول البزدوي لعلاء الدين البخاري. ط: دار الكتاب العربي، بيروت.
- (٥٦) كشف الظنون عن أسماء الكتب والفنون لحاجي خليفة. ط: دار العلوم الحديثة.

- (٥٧) لسان العرب لابن منظور. ط: دار صادر، بيروت.
- (٥٨) لسان الميزان لابن حجر العسقلاني. ط: مؤسسة الأعلمي للمطبوعات.
- (٥٩) متشابه القرآن لعبدالجبار الهمذاني. ط: دار التراث، القاهرة.
- (٦٠) مجرد مقالات الأشعري لابن فورك. ط: المكتبة الشرقية.
- (٦١) مجموع الفتاوى لشيخ الإسلام. ط: دار العربية.
- (٦٢) محصن أفكار المتقدمين والمتأخرين. ط: دار الكتاب العربي.
- (٦٣) مختار الصحاح للرازي. ط: مكتبة لبنان.
- (٦٤) مختصر الصواعق لابن القيم. ط: دار الندوة. و ط: دار الكتب العلمية. والطبعة السلفية.
- (٦٥) مدارك التنزيل وحقائق التأويل للنسفي. ط: دار الكتاب العربي.
- (٦٦) مسائل الإمام أحمد لأبي داود السجستاني. ط: دار المعرفة، بيروت.
- (٦٧) مشايخ بلخ من الحنفية. ط: (١٩٧٨م) دار العربية، بغداد.
- (٦٨) معالم التنزيل للبغوي. ط: دار المعرفة.
- (٦٩) معاني القرآن للزجاج. ط: عالم الكتب.
- (٧٠) المعجم الفلسفي. إصدار مجمع اللغة. الهيئة العامة لشؤون المطابع الأميرية.
- (٧١) المفردات للراغب. ط: دار المعرفة.
- (٧٢) مقارنة الأديان لشليبي. ط: النهضة العربية.
- (٧٣) مقالات الإسلاميين. ط: النهضة العربية. و ط: دار إحياء التراث العربي.
- (٧٤) مقالات الكوثري. ط: مطبعة الأنوار.
- (٧٥) الملل والنحل للشهرستاني. ط: دار المعرفة.
- (٧٦) المنار مع شرحه كشف الأسرار لحافظ الدين النسفي. ط: دار الكتب العلمية.
- (٧٧) مناقب أبي حنيفة للموفق المكي. ط: دار الكتاب العربي.
- (٧٨) المنتظم لابن الجوزي. ط: دار بيروت.
- (٧٩) المواقف للإيجي. ط: دار عالم الكتب.
- (٨٠) الموسوعة العربية الميسرة. ط: دار النهضة.
- (٨١) ميزان الاعتدال للذهبي. ط: دار المعرفة، بيروت.
- (٨٢) النبراس للفهراري. ط: كتيخانه، بيشاور.
- (٨٣) نشر الطوابع للمرعشي. ط: مكتبة العلوم المصرية.
- (٨٤) نونية ابن القيم. ط: دار المعرفة.

بدعة الكلام النفسي

للدكتور محمد بن عبد الرحمن الخميس

تتمة على ما نشر في العدد الماضي

بعد أن تم نشر بحث (بدعة الكلام النفسي - عرض ونقض) في العدد الخامس والعشرين من مجلة الجامعة للدكتور / محمد بن عبد الرحمن الخميس ، تبين للهيئة أن مبحثاً رابعاً بعنوان (حجج من قال بالكلام النفسي) سقط أثناء الصف ، وإتماماً للفائدة العلمية ، وحرصاً على اكتمال البحث ، ننشر في هذا العدد ما فات في ذلك العدد .

المبحث الرابع

حجج من قال ببدعة الكلام النفسي والجواب عليها

استدل من يقول بالكلام النفسي بأدلة من القرآن والسنة واللغة ، وإليك تلك الأدلة :

أولاً : الأدلة من القرآن :

أ- قول الله تبارك وتعالى : ﴿ وَيَقُولُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ ﴾ [المجادلة : ٨] .

ب- وقوله تعالى : ﴿ وَادْكُرْ رَبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرَّعًا وَخَيْفَةً ﴾

[الأعراف : ٢٠٥].

ج- وقوله تعالى: ﴿وَأَسِرُّوا قَوْلَكُمْ أَوِ اجْهَرُوا بِهِ إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ [الملك : ١٣] فسمى الإسرار قولاً.

د- وقوله تعالى: ﴿آيَتِكَ إِلَّا تُكَلِّمَ النَّاسَ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمَزًا﴾

[آل عمران : ٤١].

ثانياً : الأدلة من السنة :

قول النبي ﷺ يقول الله عز وجل « أنا عند ظن عبدي بي وأنا معه حين يذكرني إن ذكرني في نفسه ذكرته في نفسي »^(١) . فأثبت الذكر للنفس ، والذكر والقول والكلام واحد ، فعلم أن حقيقة الكلام المعني القائم بالنفس^(٢) .

ثالثاً : الأدلة من آثار السلف :

قول عمر- رضي الله عنه - «زورت في نفسي مقالة أردت أن أقولها»^(٣) .

رابعاً : الأدلة من اللغة :

احتجوا ببيت الأخطل :

إن الكلام لفـي الفـؤاد وإنما جعل اللسان على الفؤاد دليلاً

واحتجوا كذلك بأن العربي يقول : (كان في نفسي كلام) و(ما في نفسي قول) و(كان في نفسي حديث) .

هذه أهم أدلتهم على القول بالكلام النفسي ، وقد ناقش شيخ الإسلام هذه الحجج وبيّن أنه لا دليل لهم فيها ، وأنا أذكر ملخص ما أجاب به رحمه

الله عن تلك الحجج ، وذلك كما يلي :

أولاً : ما استدلوا به من القرآن :

١- استدلالهم بقوله تعالى : ﴿ وَيَقُولُونَ فِي أَنْفُسِهِمْ لَوْلَا يُعَذِّبُنَا اللَّهُ بِمَا نَقُولُ ﴾ [المجادلة : ٨] عنه جوابان :

أحدهما : أن المراد أنهم قالوه بألسنتهم سرّاً ، وحيثُذ فلا حجة لهم فيه ، وهذا هو الذي ذكره المفسرون ، حيث كانوا يقولون : سام عليك ، فإذا خرجوا يقولون في أنفسهم ، أي يقول بعضهم لبعض : لو كان نبياً عذبنا بقولنا له ما نقول ^(٤) .

والثاني : أنه قيده بالنفس ، وهذا على أن المقصود أنهم قالوه بقلوبهم ، وإذا قيد القول بالنفس كان دلالة المقيّد خلاف دلالة المطلق ، والدليل قول النبي ﷺ « إن الله تجاوز لأمتي عما حدثت به أنفسها ، ما لم تتكلم أو تعمل » ^(٥) ، وهذا رد عليهم مطلقاً لأنه قال : (ما لم تتكلم) فدل على أن حديث النفس ليس هو الكلام المطلق .

٢- وأما قوله تعالى : ﴿ وَاذْكُرْ رَبَّكَ فِي نَفْسِكَ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً ﴾ [الأعراف : ٢٠٥] فالمقصود الذكر باللسان لأنه قال ﴿ تَضَرُّعًا وَخِيفَةً وَدُونَ الْجَهْرِ مِنَ الْقَوْلِ ﴾ ، ومن استقراء النصوص يتبين أن الذي يقيد بالنفس لفظ (الحديث) ، مثل الحديث السابق (وما حدثت به أنفسها) ، أما لفظ (الكلام) فلم يعرف أنه أريد به ما في النفس فقط ^(٦) .

٣- وأما قوله : ﴿وَأَسِرُّوا قَوْلَكُمْ أَوِ اجْهَرُوا بِهِ﴾ [المالك : ١٣] ، واحتجاجهم على أن القول المسر في القلب دون اللسان لقوله تعالى في آخر الآية ﴿إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ ف (هذه حجة ضعيفة جداً ، لأن قوله ﴿وَأَسِرُّوا قَوْلَكُمْ أَوِ اجْهَرُوا بِهِ﴾ يبين أن القول يسر به تارة ، ويجهر به أخرى ، وهذا إنما هو فيما يكون في القول الذي هو بحروف مسموعة ، وقوله بعد ذلك ﴿إِنَّهُ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ من باب التنبيه بالأدنى على الأعلى ، فإنه إذا كان عليمًا بذات الصدور فعلمه بالقول المسر والمجهور به أولى^(٧) .

٤- أما قوله تعالى ﴿آيَتِكَ أَلَّا تَكْلِمَ النَّاسَ ثَلَاثَةَ أَيَّامٍ إِلَّا رَمْزًا﴾ [ال عمران : ٤١] ، فقد ذكر في مريم ﴿ثَلَاثَ لَيَالٍ سَوِيًّا﴾ [مريم : ١٠] ، و (لم يستثن شيئاً ، والقصة واحدة ، وهذا يدل على أن الاستثناء منقطع ، والمعنى ، آيتك ألا تكلم الناس ، لكن ترمز لهم رمزاً)^(٨) .

ثانياً : الجواب عما استدلوا به من السنة :

أما ما احتجوا به من قول النبي ص في الحديث السابق فليس وارداً في محل النزاع لأن الخلاف بين أهل السنة والأشاعرة إنما هو في مسمى القول لا بقيام المعاني في القلب ، فإن أهل السنة والجماعة يقرون بأن حديث النفس قد يسمى كلاماً وقولاً ، ولكن بقرينة تبين ذلك وأما مطلق الكلام والقول فإنه يعم الألفاظ والمعاني مجتمعة^(٩) .

ثالثاً : أما احتجاجهم بأثر عمر في قصة السقيفة (زورت في نفسي مقالة) فهي حجة عليهم ، لأن التزوير : إصلاح الكلام وتهيته ، (فلفظها يدل

على أنه قدر في نفسه ما يريد أن يقوله ولم يقله ، فعلم أنه لا يكون قولاً إلا إذا قيل باللسان ، وقبل ذلك لم يكن قولاً ، لكن كان مقدراً في النفس ، يراد أن يقال ، كما يقدر الإنسان في نفسه أنه يحج وأنه يصلي ، وأنه يسافر ، إلى غير ذلك ، فيكون لما يريد من القول والعمل صورة ذهنية مقدرة في النفس ، ولكن لا يسمى قولاً وعملاً إلا إذا وجدت في الخارج . . .)^(١٠) . وهذا يدل عليه الحديث السابق : « إن الله تجاوز لأمتي عما حدثت به أنفسها ما لم تتكلم به أو تعمل » .

رابعاً : الجواب عما احتجوا به من اللغة :

أما احتجاجهم بالبيت المنسوب للأخطل ، ففيه ما فيه من ناحية صحة نسبته إليه حتى أُلِفاظ البيت حُرِفَتْ لتوافق مقصود من استشهد به من أهل الكلام وقد تعجب شيخ الإسلام من هؤلاء الذين يحتجون بهذا البيت الذي قاله نصراني ، ولم يثبت عنه . فقال : « ولو احتج محتج في مسألة بحديث أخرجه في الصحيحين عن النبي ﷺ لقالوا : هذا خبر واحد ، ويكون مما اتفق العلماء على تصديقه وتلقيه بالقبول ، وهذا البيت لم يثبت نقله بإسناد صحيح لا واحد ولا أكثر من واحد ، ولا تلقاه أهل العربية بالقبول . فكيف يثبت به أدنى شيء من اللغة ، فضلاً عن مسمى الكلام^(١١) . وقد أطال شيخ الإسلام في المناقشة بما يشفي ويكفي^(١٢) .

وأما احتجاجهم بقول العربي (كان في نفسي كلام) ونحو ذلك ، فإننا لا نخالف في صحته ، لكن ليس على مرادكم - معشر الأشعرية - وإنما على مرادنا من كون لفظ (الكلام) إذا جاء مقيداً ، كان التقييد قرينة دالة على إخراجهِ عن إطلاقهِ . ونحن نقر أنه قد تراد به المعاني أو الألفاظ بالقرائن ، فلما

قيدہ العربی ہہنا بالنفس أخرجه من مطلق الكلام، فكيف يصح لكم - معشر
الأشعرية - أن تحتجوا بما هو مجاز على قواعدكم لتقرير ما هي الحقيقة؟ وذلك
أنكم تقولون : ما تصرفه القرائن عن حقيقته إنما هو المجاز^(١٣).

هذه أظهر حججهم في هذه المسألة، والجواب عليها، وبالله التوفيق.

الهوامش

- (١) متفق عليه.
 - (٢) انظر : الإنصاف للباقلاني ص (١٠٩-١١٠).
 - (٣) رواه البخاري، كتاب الحدود، باب رجم الحبلى من الزنا إذا أحصنت، حيث ساق حديث السقيفة بطوله، ورقمه (٦٨٣٠) (الفتح ١٢/١٤٤-١٤٥).
 - (٤) انظر الإيمان ص (١٢٩)، ط المكتب الإسلامي، ومجموع الفتاوى (٣٥/١٥).
 - (٥) أخرجه البخاري: كتاب الإيمان والنور باب إذا حنث ناسياً في الإيمان ورقمه (٦٦٦٤) (الفتح ١١/٥٤٨-٥٤٩)، ومسلم ، كتاب الإيمان باب تجاوز الله عن حديث النفس ورقمه (١٢٧).
 - (٦) انظر : الإيمان ص (١٣٠).
 - (٧) مجموع الفتاوى (٣٦/١٥) وانظر الإيمان ص (١٣٠).
 - (٨) الإيمان ، ص (١٣١).
 - (٩) انظر كتاب العقيدة السلفية في كلام رب البرية ص (٣٥١).
 - (١٠) الإيمان ص (١٣١-١٣٢)، ص المكتب الإسلامي.
 - (١١) الإيمان ص (١٣٢).
 - (١٢) الإيمان ص (١٣٢-١٣٤).
 - (١٣) العقيدة السلفية في كلام رب البرية ص (٣٥١-٣٥٢).
- وقد سقط من المبحث الثالث في بحث (بدعة الكلام النفسي) المنشور في العدد الخامس والعشرين الهوامش الآتية:
- في عنوان المبحث ص (٤٠)
- (من أشمل الكتب التي وقفت عليها في نقض بدعة الكلام النفسي كتاب التسعينية لشيخ الإسلام ، ضمن مجموعة الفتاوى الكبرى، وكتاب الحرف والصوت للسجزي، وكتاب الماتريدي وموقفهم من الصفات للشيخ شمس الدين الأفغاني رحمه الله، وعنهم

حررت هذا المبحث.

- في آخر الوجه الرابع ص (٤٤)
(انظر : الماتريدية لشمس الدين الأفغاني ٨٤/٣ بنحوه).
- في آخر الوجه الخامس ص (٤٧)
(انظر : الماتريدية لشمس الدين الأفغاني ٨٩/٣ بنحوه).
- في آخر الوجه السابع ص (٤٨)
(الماتريدية لشمس الدين الأفغاني ٩٠/٣).
- في آخر الوجه الثامن ص (٤٩) يضاف للهامش رقم ١٢٦
(انظر : الماتريدية لشمس الدين الأفغاني ٩١/٣-٩٢).
- في آخر الوجه التاسع ص (٥٠) يضاف للهامش رقم ١٢٨
(انظر : الماتريدية لشمس الدين الأفغاني ٩٢/٣-٩٣، ١٠٠-١٠١).
- في آخر الوجه الثاني عشر ص (٥٤)
(انظر : الماتريدية لشمس الدين الأفغاني ١٠١/٣-١٠٢).
- في آخر الوجه الثالث عشر ص (٥٦).
(انظر : الماتريدية لشمس الدين الأفغاني ٩٣/٣-٩٦).
- في آخر الوجه الخامس عشر ص (٥٧) يضاف للهامش ١٦٠
(و الماتريدية لشمس الدين الأفغاني ١٠١/٣-١٠٣).
- في آخر الوجه السادس عشر ص (٥٩)
(الماتريدية لشمس الدين الأفغاني ١٠٣/٣-١٠٤).
- في آخر الوجه العشرين ص (٦٢)
(انظر : الماتريدية لشمس الدين الأفغاني ١٢١/٣).
- في آخر الوجه الثاني والعشرين ص (٦٣)
(انظر : الماتريدية لشمس الدين الأفغاني ١٣٥/٣-١٣٦).

* وسقط من المراجع

- ١- العقيدة السلفية في إثبات كلام رب البرية - للجديع - ط دار الإمام مالك.
- ٢- التسعينية - لشيخ الإسلام ابن تيمية ، ضمن مجموع الفتاوى الكبرى.
- ٣- الماتريدية وموقفهم من توحيد الأسماء والصفات - لشمس الدين الأفغاني رحمه الله - ط مكتبة الصديق بالطائف.